أحمد آل حمدان

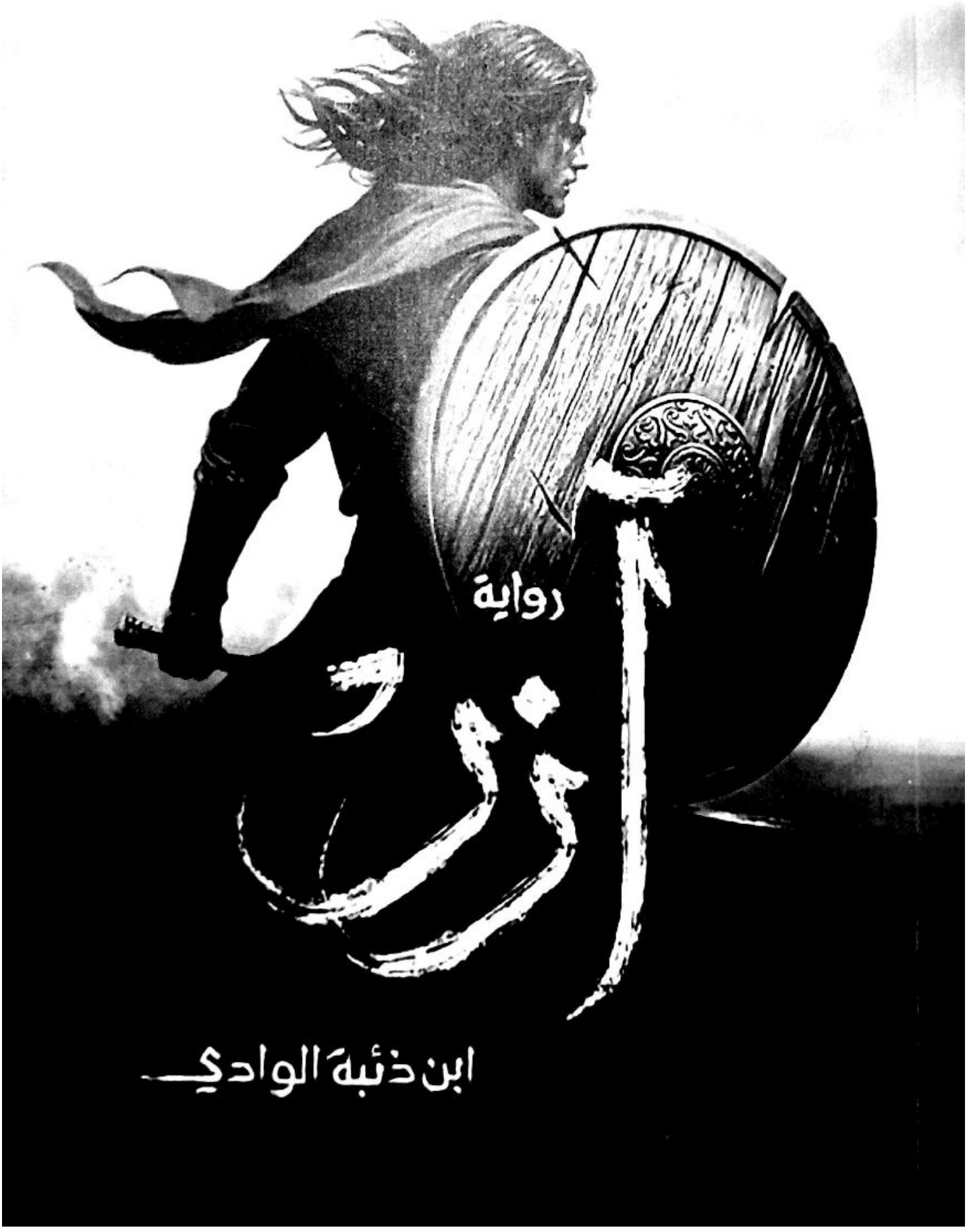

رواية

ابن ذئبة الوادي

آزر

ابن ذئبة الوادي

ملحمة الليل والرمال

آزر

ابن ذئبة الوادي

مستوحاة من أحداث تاريخية

للمؤلف: أحمد آل حمدان

٢٠٢٥ م

ليس بوسع المرء أن ينال المجد،
دون أن يدفع نصيبه من الألم.

ما جاءت المرأة إلا لأمر إذًا،
افتح لها الباب تنظر في أمرها يا حِذَا..

الباب الأول

١

ليلًا،

وعند سفح جبل قريب من الكعبة يُسمى (جبل أبي قُبيس)،

تعالت صرخات طفل رضيع كان مقمّطًا في خرقة بالية، يبكي وحيدًا وقد أضناه البرد ونال منه الجوع. لم ينتبه أحد من سكان الوادي - وادي مكة - إلى أصوات البكاء تلك الليلة .. ليس فقط لأن الوقت كان متأخرًا والجميع يغطُ في نوم عميق، بل لأن أزيز المطر كان يمنع صرخات البكاء من الوصول إلى الآذان المُنجدة.

وبينما الطفل على تلك الحالة، إذ ظهر مخلوقٌ ما من فوق قِمة الجبل، كان المخلوق عبارة عن ذئبة سوداء ضخمة راحت تدنو من الطفل مقتربة بهدوء مُريب، ومرعب معًا وبخطوات لا تُبشر بالخير أبدًا ..

هي لم تكن جائعة، لكنها كانت في حالة من الغضب الشديد؛ فقبل أيام قليلة قام بعض الصيادين من بني البشر بقتل جروها الوحيد؛ وقد حان الأوان لتلك الأم الكسيرة أن تفتك بأحد صِغار البشر انتقامًا لمقتل صغيرها.

لكن الذئبة ما كادت تقترب منه للحد الذي لم يعد يفصلها عنه غير ضربة مخلب واحدة وتُحقق ثأرها، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا: فقد هدأ الرضيع تمامًا؛ وكأنما إحساس غامض بالأمان اجتاح أعماقه عندما استأنس وجود كائنٍ حي بالقرب منه. كان ضعفه وقِلة حيلته وخلجات أنفاسه المُتعبة بعد البكاء، هو ما تسبب في تحريك غريزة الأمومة لدى الذئبة؛ وجعلها ترى صورة جروها الميت مُتمثلة في هذا الطفل البشري الحي.

حارت الذئبة ولم تعد تدري ما تصنع: غضبها يأمرها بقتله، أما قلبها فيطلب منها احتواءه، وبين هذا وذاك طافت حوله قليلًا وهي تصارع الصوتين بداخلها، لا تدري أتنصاع لصرخات الغضب أم تُلبي نداء القلب.

لكن الذئبة ما كادت تقترب منه للحد الذي لم يعد يفصلها عنه غير ضربة مخلب واحدة وتُحقق ثأرها، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا: فقد هدأ الرضيع تمامًا؛ وكأنما إحساس غامض بالأمان اجتاح أعماقه عندما استأنس وجود كائنٍ حي بالقرب منه. كان ضعفه وقلة حيلته وخلجات أنفاسه المُتعبة بعد البكاء، هو ما تسبب في تحريك غريزة الأمومة لدى الذئبة؛ وجعلها ترى صورة جروها الميت مُتمثلة في هذا الطفل البشري الحي.

حارت الذئبة ولم تعد تدري ما تصنع: غضبها يأمرها بقتله، أما قلبها فيطلب منها احتواءه، وبين هذا وذاك طافت حوله قليلًا وهي تصارع الصوتين بداخلها، لا تدري أتنصاع لصرخات الغضب أم تُلبي نداء القلب.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لاحت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

٢

أخيرًا جذبته من طرف القِماط وحملته إلى قِمة الجبل حيث تنهض شجرة سِدر عَتيقة وافرة الأغصان، احتمت به تحت أوراقها من زخات المطر وهي تلف جسدها حوله لتمنحه بعض الدفء، ثم راحت تلعق جسده بلسانها حتى عاد الدم إلى وجهه الشاحب وسَكن في حضنها.

بعد لحظات يسيرة من ذلك بدأت أصوات غريبة تنبعث من بطنه أعقبها صوت أنين يُقارب البكاء؛ أدركت الذئبة غريزيًا أنه جائع فعدلت من وضعية جسدها وقربت ثديها من عند أنفه، وما إن استنشق الرضيع رائحة الطعام حتى فتح فمه بحركة غريزية، وسارع في التقام حليبها الدافئ.

لانت ملامح الذئبة وهي تتأمل مشهد الرضيع وهو يتناول طعامه حتى غفا بسلام في حضنها .. ثم جعلت بعد ذلك تتأمل ملامحه الوديعة وثمة شعور غامض يُداهم قلبها تلك اللحظة: لقد أحست بأنها تحتاج إليه أكثر من حاجته إليها، فقد جعلها تشعر بأمومتها المسلوبة؛ وكأن أطفال الأرض كلهم تجمعهم البراءة والعفوية والفطرة الواحدة حتى وإن كانوا في أجناسهم مختلفين.

مكثت الدئبة مكانها حتى توقف المطر،

ثم نهضت على قوائمها الأربع بخفة حتى لا توقظ الطفل من سباته، وقد قررت أن تأخذه معها نحو زُمرتها - زُمرة ذئاب الوادي - مع أنها تدرك جيدًا أن الذئاب لن تقبل جنسًا دخيلًا عليها، لكنها سوف تستخدم سُلطتها كزوجة زعيم الزُمرة وتمنعهم من مهاجمته .. فحملته بأنيابها من قِماطه وابتعدت به بضع خطوات ثم توقفت فجأة وقد بان عليها التردد .. فرغم قدرتها على حمايته من غضب الزُمرة، إلا أن إحساسًا فطريًا بداخلها أخبرها بأن ذلك الصغير سيكون بحاجة إلى رعاية خاصة، لا يستطيع تقديمها إليه إلا أفراد قطيعه البشري؛ فبالرغم من قوة جنس بني البشر وتَسلُطهم، إلا أنهم مخلوقات تُولد ضعيفة في هذه الحياة وتموت إن لم تجد الرعاية الكافية؛ وهكذا وجدت نفسها بين مفترق صعب:

أتعيده إلى بني جنسه فتحفظ له حياته ؟

أم تحتفظ به فتجبر قلبها ؟

٣

نُمير بن رَبيعة

في ذلك الوقت المتأخر من الليل،

أفاق سيد وادي مكة (نُمير بن رَبيعة) لتوه من النوم بعد رؤيته حُلمًا غريبًا، وبينما كان يجلس على طرف السرير يسترجع تفاصيل الحلم ويحاول أن يجد له تأويلًا، إذ التقطت أذناه أصوات أقدام تتسحب داخل الفناء وتقترب من باب داره.

كان يُدرك أن تلك الخطوات ليست لصديق أو ضيف؛ فالصديق لن يأتيَ في مثل هذا الوقت المتأخر، والضيف لن يتسلل خِلسة هكذا، فامتشق سيفه وفتح الباب ليقبض على اللص الجبان، لكنه في عَتمة الليل لم يرَ رجلًا ولا امرأة، بل كانت ذئبة سوداء ضخمة جاءت تحمل بين فكيها طفلًا بشري.

أنزلت الذئبة الطفل أرضًا،

ثم جلست على قوائمها الخلفية خافضة رأسها أمام سيد الدار.

لقد عُرف السيد نُمير بن رَبيعة في قومه بإحياء الموءودة؛ فعندما يهمُّ أحد الرجال بدفن طفلته مخافة الفقر أو العار أو الشؤم، كان السيد يأخذها حتى إذا بلغت سِن الصبا أعادها إلى والدها وقد كفاه مؤونتها؛ وهذا ما جعل داره مقصدًا للكثير من الآباء أو الأمهات الذين يبدلون أطفالهم الإناث .. وهكذا فقد قصد دار ذلك الرجل الشهم الكثير من الرجال والنساء على مرّ الزمان، ولكنها المرة الأولى التي يقصده فيها وحشٌ من وحوش الوادي ..[1]

تقدم السيد نُمير بن رَبيعة وسط فناء داره بقدميه الحافيتين، حتى إذا وصل عند الرضيع انحنى عليه وحمله بين كفيه المليئتين بالحنان الأبوي، وأخذ يتأمله بين يديه ..

هنا، تحرك الرضيع وتمطّى، وقد تسببت تلك الحركة في انكشاف القِماط عن جسده؛ ليتفاجأ السيد أن ما يُمسك به صبي وليست بنتًا كما كان يَتوقع، وتساءل في نفسه: " لطالما كانت الأنثى فقط هي من تُترك لتموت، أو يدفنها أبوها حية، لكن الغلام يكبر فيكون سندًا لأبيه وقومه، تُرى من ذا الذي - ولماذا - يتخلى عن غلام مكتمل الجوارح صحيح البدن ومعافى من العيوب ؟ "

---

١ (الموءودة) كان العرب في الجاهلية يدفنون الإناث من مواليدهم وهنّ على قيد
مخافة العار أو الحاجة أو لأسباب أخرى، وهذا الفعل يُسمى (وأد)

امتدت يدُ الطفل في تلك اللحظة، وأمسكت بخصلة من شعر لحية السيد الكثيفة البيضاء. كانت حركة عفوية بالطبع، ولكنها جعلت ملامح السيد تُصاب بالرعشة والذهول؛ فقد كانت حركة الطفل غير المقصودة تلك، هي ما فسرت له حلمه الغريب والمخيف الذي رآه هذه الليلة.

**

سار السيد نُمير إلى خارج الدار وهو يحمل الرضيع بين ذراعيه وقد استطاع - بينما هو يتجه نحو الكعبة - أن يلمح الذئبة من زاوية عينه وهي تتبعه في جُنح الظلام؛ فأدرك لحظتها أنها تعتبر نفسها أمًا للطفل، إنها متعلقة به جدًّا وتخاف عليه كما لو أنه ابنها، وهذا بحسب خبرته لا يحدث إلا إذا كانت الذئبة قد أرضعت الطفل من حليبها.

وما إن وصل ناحية الكعبة حتى صعد بالطفل جبلًا قريبًا منها تُقدسه العرب وتجله، يُسمى جبل الصّفا، بينما اختبأت الذئبة قريبًا من هناك وأخذت تراقب بنظرات قلقة ما سوف يحدث بعد قليل ..[٢]

٢ (جبل الصّفا) هو النقطة التي بدأت منها هاجر - زوجة النبي إبراهيم - السعي بحثًا عن الماء لطفلها إسماعيل؛ ولهذا كان لذلك الجبل في قلوب أهل مكة منزلة كبيرة؛ فيقصدونه عندما يرغبون في إنذار قومهم بحدث جلل.

كان السيد نُمير يدرك جيدًا مشاعر الاستنكار والتعجب التي سيقابله بها أفراد قومه، بعد أن يكتشفوا سبب دعوته إليهم في هذا الوقت المتأخر من الليل .. ولكنه سيمضي قُدمًا فيما عقد العزم عليه؛ فالحلم الذي رآه في ليلته هذه خطير - بل خطير جدًا - ويجب عليه أن يحمي قومه مما هو قادم، فأخذ نفسًا عميقًا وصاح:

- واصباحاااه .. واصباحاااه .. واصباحاااه ! !

تُعدّ هذه الكلمة (واصباحاه) عند العرب بمثابة قرع طبول الحرب، لذلك ما إن خرجت من فمه حتى راحت قناديل الضوء تشتعل في البيوت واستيقظت العيون الغافية، بينما السيد يواصل نداءه:

- يا سادة البطحاء، يا آل مكة، يا أهل الوادي، هلموا إليّ ! ![٣]

**

وما إن ميّز الناس صوت المُنادي وعرفوا أنه سيّدهم نُمير بن رَبيعة حتى هبوا جميعًا: الكبار والصغار، السادة والعبيد، الفرسان والصعاليك، وقد حمل كُل منهم سيفه وعِدة حربه، وراحوا يركضون نحو مَنبع الصوت ينظرون الخطب والخبر. فاجتمع الناس تلك الليلة حول جبل الصّفا بوجوه متطلعة وقلوب واجفة ..

كل ذلك والذئبة تراقب ما يحدث من مخبئها بعين قلقة ..

---

٣ (سادة البطحاء) مصطلح يُقصد به سادة مكة .. (آل مكة) تعني أهلها الأصليين، أما كلمة (أهل الوادي) فهو مصطلح يعني جميع من يسكن وادي مكة.

مَهابة المشهد كانت تجعل الناظر من بعيد يُخيل إليه أن القضول كان يسكن حتى الأصنام المنتصبة حول الكعبة، وكأنما هي الأخرى تريد أن تعرف ما الذي سيحدث بعد قليل، تأمل السيد وجوه الحشد من حوله للحظات قبل أن ينفرج فمه عن هذا السؤال:

- أفَقد أحدٌ منكم رضيعًا هذه الليلة ؟

أطبق صمتٌ غريب على المكان، وراح الناس يتبادلون النظرات فيما بينهم وكأنما لا يُصدقون؛ فقد جاؤوا يتوقعون حربًا أو غارة تُشن عليهم وإذ به يسألهم عن طفل رضيع ؟! ..

قطع السيد عليهم صمتهم ذاك في حدة وغضب:

- ثكلتكم أمهاتكم، ما لكم لا تُجيبون ؟

قال أحد السادة متحدثًا بلسان الجميع وباحترام يشوبه العتب:

- أصلحتك الآلهة يا نُمير .. أتوقظنا من مَرقدنا هذه الليلة لأجل رضيع جيء به إليك ؟! .. أما كنت تنتظر حتى يجتمع السادة في دار الندوة صباحًا فتحدثنا بشأنه ؟!

- هذا خطبٌ ليس كباقي الخطوب، وإنه واللات لا ينتظر حتى الصباح.

انبعث من أقصى يسار الحشد صوت سيدٍ آخر يقول متسائلًا:

- وأي خطب جلل في هذا والناس ما فتِئوا يطرقون عليك باب الدار، ويُلقون إليك بأطفالهم في الغداة والعشيّ ؟

- لأن طارق الدار لم يكن من البشر هذه المرة.

عاد الصمت يُطبق عليهم مرة أخرى،

صمتٌ لم يكسره غير صوت انبرى من وسط الحشود، لسيد مُهاب بين العرب اسمه (الحارث بن الأجهر) وهو الرجل الثاني في الوادي بعد السيد نُمير بن رَبيعة:

- ومن جاء بالرضيع إليك ؟

نظر السيد نحو زاوية خلفه وأشار بيده لمن فيها، فظهر من عُمق الظلام ذئبة سوداء ضخمة ذات فراء كثيف، سارت بقوائمها الأربع حتى وقفت إلى جواره. هنا تساءل الحارث وهو يكاد لا يصدق ذلك المشهد كحال غيره من الناس:

- أهذه الذئبة هي من أتت به إليك ؟

أومأ السيد نُمير برأسه، وأضاف وهو ينظر إلى وجوه الحاضرين:

- وأظن أنها قد أرضعته من حليبها أيضًا، ونصبت نفسها أمًا له.

وبينما الناس في غَمام من الذهول، إذ صاح السيد نُمير عليهم:

- أُشهدكم يا أهل الوادي ! ! !

شخصت أبصار الناس إليه وكُتمت الأنفاس .. وراحت أسماعهم تترقب ما سوف يُقال لهم، ثم رفع السيد نُمير الرضيع بكلتا يديه عاليًا، وقال بصوتٍ مَهيب:

- أُشهدكم أنني أسميته (آزر) وأُشهدكم أنني أكفله في حياتي ومماتي، وأنه منذ اللحظة تحت حِماي وجواري؛ يُصيبني ما يُصيبه ويمسني ما يَمسه، فمن تعرض له بسوء فقد أهدر دمه.

وما إن تأكد من أن صوته قد وصل إلى جميع الآذان حتى أرخى يديه وقال:

- وإكرامًا لمن جاءتني به؛ فهذه الذئبة أيضًا في حِماي وجواري.

ثم التفت ينظر إلى الناس ويسألهم:

- هل شهدتم ؟

كان ذلك موقفًا غريبًا لم يسبق لأحدٍ أن شَهد مثله من قبل: سيد القوم يستدعي الناس ليلًا، ليُشهدهم أنه يُجير طفلًا مجهول النسب، ووحشًا من وحوش الوادي.

- ما لكم لا تُجيبون ؟ أأصابكم الخرس أم العته ؟

إكرامًا لسيدهم، قالوا بصوت واحد:

- شهدنا، شهدنا ! !

**

انصرف الناس بعد ذلك عائدين إلى بيوتهم، بينما تطلع السيد نُمير إلى الذئبة ومسح بيده الحانية على رأسها، ورغم يقينه بأنها لا تفهم كلام البشر، إلا أن شيئًا ما في داخله أخبره بأن قلبها سوف يَفهم كل كلمة يقولها لها؛ وهذا ما دفعه لأن يُكلمها:

- كنتِ تستطيعين سفك دمه أيتها الذئبة .. ولكنكِ ولسبب لا يعلمه غير السماء قررتِ احتواءه؛ ولذلك فمنذ الآن وصاعدًا سيكون اسمكِ حواء.

تأملته الذئبة بعينيها الواسعتين، فشاهد السيد في ظلام عينيها ما أثبت له صدق إحساسه؛ لقد وقعت كلماته في قلبها وفهمت كل ما قيل لها، أكمل نُمير قائلًا:

- أريدك ألّا تقلقي بشأن آزر فقد تعهدت أمام القوم بكفالته حيًا وميتًا، وسوف يكون بأمان هنا .. ويُمكنكِ أن تأتي لزيارته أنَّى شاء لك ذلك ولن يمسّك أحدٌ بسوء.

رفعت حواء رأسها باتجاه الرضيع ففهم السيد مقصدها؛ وانحنى به إليها فألصقت وجهها بخده وكأنها تُلقي عليه بذلك تحية الوداع، ثم انصرفت، بينما ظل السيد يُشيعها ببصره حتى توارت خلف الظلام وجاءه صوت من خلفه يقول:

- ما لك ولهذا الأمر يا نُمير ؟

التفت السيد إلى مصدر الصوت؛ فرأى الحارث بن الأجهر مقبلًا إليه:

- أأنت أيضًا تظن أنني جمعت الناس لأمر لا يستحق ؟

- رضيعٌ تأتي به ذئبة سوداء في هذه الليلة الحالكة، إنه واللات والعُزى لأمر يدعو إلى الشؤم؛ فإن شئت الرأي: أرسله خارج مكة؛ فتتخلص من شؤمه ولعنته.

- لا أُخرجه وقد أدخلته حماي وجواري.

- أُخرجه عنك إذًا؛ فأكفيك عناء ذلك.

- صهٍ أيها الحارث، واللات لولا الصحبة التي بيننا لأريتك ما تكر

أدرك الحارث بن الأجهر على الفور أنه أخطأ بحق صاحبه؛ فقال بلهجة متودّدة:

– صُحبتنا القديمة تجعلني أُدرك أنك لا تفعل شيئًا على عواهنه، فأخبرني سرّ هذا الأمر .. وإنك لتعرف أنني صاحب أمين؛ أحفظ لك السرّ وأصدقك المشورة.

لقد عَزم السيد نُمير أن يكتم الأمر في نفسه، ولكن ما يعرفه كان أكبر من أن يستطيع السكوت عنه:

– لقد رأيتُ في منامي هذه الليلة أمرًا عجبًا يا حارث: رأيتُ أعاجمَ يأتون من المشرق يركبون الخيل ويعبرون القَفر، ثم يخطفون كوكبًا من سماء العرب.

كان السيد نُمير بن رَبيعة رجلًا صاحب رؤيا؛ لا يرى في منامه حُلمًا إلا استحال واقعًا؛ وهذا ما دفع الحارث لأن يأخذ ذلك الحلم على محمل الجد ويسأل باهتمام:

– وما دخل الطفل بهذه الرؤيا يا نُمير ؟!

أجابه السيد:

- ما إن أمسك هذا الصغير لحيتي بيده حتى أعاد إليَّ الحُلم وكأنه بات أمامي حقيقة؛ قلبي يُحدثني أن لهذا الطفل سرًا وخبرًا، وأنه يُؤازر قومه حين يكبر؛ ولهذا أسميته (آزر) .. فاحفظ عني هذا السر يا حارث ولا تخبر به أحدًا.

بعد سنوات..

٤

من فوق قِمة جبل يُطل على الكعبة هو (جبل أبي قُبيس) كان آزر البالغ عمره الآن - اثنتا عشر عامًا - يجلس متوسدًا حضن أمه الذئبة حواء، يُحدق إلى السماء بينما ألوان الغروب البرتقالية تلون حدود الأفق، مُعلنة عن رحيل الشمس وظهور قَمر ليلة مكتمل.

لقد اعتاد الجلوس كل يوم فوق قمة ذلك الجبل؛ فمنذ أن كان طفلًا كانت الذئبة حواء تجيء من أجله كل صباح لتحمله معها وسط صيحات الأطفال وخوف النساء، وتصعد به إلى قمة الجبل حيث شجرة السِدر العتيقة فيحتميان بظلها من أشعة الشمس، بينما تمكث معه وتلاعبه حتى إذا جنَّ الليل أعادته إلى منزله ورحلت عنه؛ كانت هذه عادتهما على امتداد الأعوام الماضية حيث كل يوم يشبه الذي قبله، ولكن اليوم بالذات حدث أمرٌ مختلف جعل آزر يتمنى لو أن حواء كانت تستطيع الكلام؛ فيبوح إليها بما يُثقل كاهله ويسمع منها ما يُخفف الحزن عنه، ورغم يقينه بأنها لن تستطيع الإجابة عن سؤاله، إلا أنه وجد نفسه يتحدث معها وكأنه يريد التخلص من كلمات لا يريد أن يُبقيها بصدره فيختنق بها:

- لماذا يكرهني الجميع ؟

كان ذلك السؤال يخترق قلبه مثل وكزة رمح؛ فقد كان الناس جميعهم يتجنبونه ويكرهونه، ليس لأنه مجهول النسب فقط، بل لأنهم يعتبرونه فال شؤم أيضًا؛ فقد مات سيدهم نُمير بن زَبيعة بعد أن كفله بثلاثة أشهر فقط، ومنذ ذلك الحين، والناس لا تمرّ بهم مصيبة كبيرة أو صغيرة إلا وألصقوها به، فإن حضر قالوا جاء وجلب المصيبة معه، وإن غاب قالوا إن المصيبة ما حلّت بهم إلا لأنه يسكن بينهم.

همس بصوت، غصّ بمشاعره:

- أنا لا أؤذي أحدًا ولا أسرق شيئًا من أحد .. ولا أضرب إلا دفاعًا عن النفس - ثم أكمل من بين شهقاته يقول: لماذا يتجنبون الحديث معي؟ ولماذا لا يُشركني الأولاد في ألعابهم؟ ولماذا يُقابلني الجميع بكل هذا الكره والحقد؟

قرّبت الذئبة رأسها منه ولعقت بلسانها وجهه؛

لطالما كانت هذه الحركة تُنسيه حزنه وتدفعه إلى الانهماك في نوبة من الضحك المتواصل، ولكن حزنه هذه المرة كان أكبر من كل مرة سابقة بسبب ما حدث في ظهيرة هذا اليوم ..

(ما حدث في ظهيرة اليوم)

بدا ذلك اليوم عاديًا:

حيث آزر يجلس إلى جوار بُثينة - وهي أجيرة سمراء تعمل في دار السيد نُمير بن رَبيعة، تعتني بالأطفال الذين كفلهم سيدها قبل موته - وبينما هو جالس إلى جوارها إذ ألقى عليها بسؤال أثار فضوله وهو يتأمل الأصنام التي يربو عددها على ثلاثمئة صنم[٤] حول الكعبة، ويشاهد الناس وهم يسجدون لها وينحرون لأجلها البهائم ويقدمون لها الشراب والطعام:

- لماذا يفعل الناس هذا يا بُثين ؟!

ابتسمت المربية السمراء وقد أدركت أن مزاج الصغير في أفضل أحواله؛ فهو لا يناديها بذلك الاسم (بُثين) إلا إن كانت حالته المزاجية في أفضل أحوالها:

- إنهم يفعلون ذلك لجلب البركة والحماية والنُصرة عند الحاجة.

---

٤ كان عدد الأصنام حول الكعبة في زمن الجاهلية ثلاثمئة وستون صنمًا، حسب ما ورد في بعض المصادر التاريخية.

كان الصبي معتادًا على مكاشفتها بما في نفسه دون تردد أو خوف؛ وهذا ما دفعه لأن يقول:

- لقد رأيتُ الصعاليك وهم يسرقون الطعام والشراب ليلًا من أمام تلك الآلهة، دون أن يُحرك أحدٌ منها ذراعًا للدفاع عن نفسه، أو دون أن تَنطق في اليوم التالي لتخبر عن الشخص الذي سَرقها، فكيف يكون ذلك يا بُثين ؟ كيف يكون بوسع هذه الأصنام أن تمنح البركة والحماية والنُصرة لمن يعبدها وهي لا تستطيع أن تُقدم شيئًا من ذلك لنفسها ؟

بالرغم من حداثة سِنه وعدم تلقيه العِلم من الكَهنة أو الأحبار، إلا أن ابتعاد الجميع عنه وعدم مخالطتهم له، قد ساهم في أن يحافظ على فطرته الإنسانية السليمة دون أن تشوهها مُعتقدات الآخرين وأفكارهم الخاطئة. اتسعت عينا بُثينة في جزع وهي تقول:

- اخفض صوتك؛ فلا يسمعك أحد.

- لا تخافي؛ إنها لا تسمع شيئًا، وإن سمعت فإنها لا تضر ولا تنفع.

- لستُ أخاف عليك منها - قالت - بل من سادة مكة وشيوخها، فهم إنما يُبقونك بينهم حفظًا لجوار سيدنا نُمير بن رَبيعة؛ فإن سمعوك الآن تقول كلامًا خطيرًا كهذا، فإنهم لن يتأخروا بطردك وربما قتلك بحجة تعديك على آلهتهم؛ فعِدني ألّا تُخبر أحدًا بمقالتك هذه أبدًا.

على الرغم من أن الموقف لا يحتمل التبسم؛ إلا أن آزر ابتسم عندما أحس بأن هنالك من يخاف عليه. لقد كان طعم ذلك الشعور بالنسبة إليه أحلى من قصعة بُر مُحلاة بالعسل:

- أعدك - قال - أعدك ألّا أخبر أحدًا.

ما إن أخذت الوعد حتى غادرت في بعض شأنها مرتاحة البال، فهي تعلم أنه لا يَخلف وعدًا قطعه أبدًا. في حين ظل آزر مكانه وحيدًا يُكمل تأمله في الطائفين حول الكعبة وأصنامها .. وبينما هو كذلك، إذ حاوطه فجأة عدد من الفتيان الذين يقاربونه عمرًا؛ يتقدمهم فتىً يرتدي حُلة فاخرة اسمه (كَعب)، يعصب حول رأسه عمامة عربية ينسدل من أسفلها شعره الأسود الطويل:

- هذا وقت السادة، أما العبيد فيأتون بعد مغيب الشمس.

ابتلع آزر الإهانة كعادته - ليس جُبنًا منه - بل خوفًا من أن يندفع بالرد فيجلب بشجاره مع أبناء السادة مزيدًا من كراهية الآخرين له؛ فأخفض بصره خضوعًا وقال برد بأدب:

- لستُ عبدًا.

اتسعت ابتسامة كَعب وهو يقول مواصلًا مضايقته:

- إنك لا ترقى لمنزلة العبيد حتى؛ فأنت لقيط مجهول النسب.

بدا ذلك الصبي كَعب أنه أكبر الصبيان منزلة ومكانة؛ فقد كان يتحدث والبقية يضحكون فقط. همَّ آزر بالمغادرة ولكنه ما إن استدار حتى أوقفه كَعب قائلًا:

- ألم تتعلم ألّا تغادر من أمام السادة قبل أن يأذنوا لك ؟

في الحقيقة، كان آزر يتمنى لو أن تلك العُصبة يقبلونه صاحبًا بينهم، وكان هذا سببًا إضافيًا يجعله ينصاع إلى رغبتهم دون مخالفة؛ إنه لا يريد أن يتشاجر معهم الآن فيُصبح من المستحيل عليه مستقبلًا أن يكون صاحبًا لهم؛ وهذا ما جعله يقول:

- اسمح لي بالانصراف.

في الجهة المقابلة كان كَعب يريد أن يَفرض سطوته أمام أصحابه ليُثبت لهم أنه السيد ابن السيد، وقد وجد في آزر - المستضعف - والذي ليس له من يدافع عنه فرصة مواتية في ذلك:

- لقد نمى إلى أسماعنا أن بُثينة تعلمك القراءة.

- نعم، صحيح.

- أخبرها أن ذلك العِلم لن يُعلي مكانتك؛ فأنت ستظل دائمًا لقيطًا مجهول النسب، لا مجد لك ولا كرامة.

كانت بُثينة بالفعل قد علمته الحروف العربية أثناء أوقات فراغهما؛ فكان سعيدًا بذلك العلم فخورًا بأنه أحد القلائل ممن يستطيعون القراءة والكتابة، ولكنه لن يدخل في جدال مع كَعب حول ذلك؛ وهذا ما دفعه إلى أن يقول:

- حسنًا سأخبرها - ثم أضاف وهو يستدير: استأذنك الآن.

ولكنه ما كاد أن يبتعد قليلًا حتى أسمعه كعب ما لا يطيق:

- لقد علمني والدي الحارث بن الأجهر اليوم شيئًا أحسن مما تعلمك إياه بُثينة؛ لقد علمني كيف أنحر البهائم - ثم سحب خنجره وجعل يلوح به أمام ضحكات أصحابه وهو يُضيف قائلًا:

- فأين أمك الذئبة لأنحرها ؟

هنا لم يعد آزر قادرًا على كبح غضبه وهو يسمع أحدًا يُهين أمه؛ فهجم على كعب وهو لا يُبالي بسيد أو لقيط أو عبد، أو بما سوف يحدث لاحقًا، فانتزع الخنجر من يده ثم التف حوله وجرح ساقه بحركة سريعة؛ ليسقط كعب بعدها أرضًا والدماء تسيل من ساقه، بينما اقترب آزر من عند أذنه وهو يهمس بصوت غاضب:

- ستخرج هذه الدماء من عُنقك عندما تُهين أمي في المرة القادمة.

ارتعد الصبية من هول المشهد، وانطلقوا في أزقة مكة وشِعابها يتصايحون ويُذيعون:

- لقد اعتدى آزر على كعب بن سيدنا الحارث بن الأجهر ! !

اختلطت المشاعر في أعماق آزر وهو يستمع لصرخاتهم وأحس برغبة في الهرب - ليس من المكان فقط - بل من الوادي كله وهو يرى الناس يأتون ركضًا بعد سماعهم الخبر ويحيطون بكعب ليتفقدوه ويطمئنوا عليه؛ أشفق آزر على نفسه وهذا ما دفعه إلى أن يميل بالخنجر نحو ساقه ويجرحها أملًا في أن يفوز بعينٍ حنونة تنظر إليه .. ولكن العيون كلها كانت تنصب حول ابن السيد ..

وما هي إلا لحظات يسيرة بعد ذلك حتى جاء عبيد الحارث بن الأجهر ليطمئنوا على ابن سيدهم والذي ما إن لمحهم يقتربون منه حتى رفع عقيرته بالصياح مبالغًا في تصنع الألم، مدعيًا أنه تلقى طعنة خطيرة لن تنجوَ منها ساقه إلى الأبد؛ فأخذ العبيد يواسونه وهم يحملونه إلى الدار رغم معاينتهم الجرح وتأكدهم بأنه سطحي لا خطر منه أو قلق، بينما مكث آزر مكانه دون أن يعطيه أحد من الناس اهتمامًا وكأنه حشرة لا وجود لها، وظلّ كذلك - يُقاسي من التهميش والتجاهل - حتى أطبقت عليه يدٌ كبيرة هي يد عبد اسمه جحش وجرته نحو مكان ما ..

**

(دار الحارث بن الأجهر)

وقف الاثنان - آزر وكَعب - في فناء الدار الواسع أمام سيد سادة الوادي الحارث بن الأجهر، والذي بدا غاضبًا وهو ينظر إلى ابنه قبل أن يصرخ عليه وكأنه أسد يزأر:

- صهٍ يا كَعب !!

ثم أضاف بنبرة أهدأ:

- فلا يليق بأبناء السادة أن يبكوا مثل الثكالى هكذا.

صمت كَعب وقد أوقف مبالغته بينما واصل والده تأنيبه:

- ثم كيف سمحت له بأن يأخذ خنجرك من يدك ويجرحك به ؟

كَعب وهو يبتلع ريقه ويمسح بكم ثوبه الدموع:

- لقد غدر بي، جاءني من الخلف وسرق خنجري على حين غرة.

كان آزر قد قرر سلفًا أن يَصمت ولا يُقحم نفسه فيما لا تُحمد عقباه، ولكن عروقه النابضة بالدماء العربية أبت عليه أن يصمت بعد أن وصمه أحدهم بالغدر؛ فانطلق لسانه على الرغم منه:

- كذب ورب الكعبة، إنما الغدر للجبناء.

لم يستطع الحارث منع نفسه من الإعجاب بذلك الصبي ولكنه تمسك بحمية الأبوة:

- إنه لا يمنعني عن إلحاق الأذى بك يا آزر أو طردك من الوادي إلا وفاءً لجوار صاحبي نُمير بن رَبيعة .. فإياك أن تعود إلى مثلها مجددًا؛ فإن صبري لن يغلب غضبي في المرة القادمة.

بنظرة كسيرة همس آزر ورأسه مُطأطأة:

- سمعًا وطاعة.

التفت الحارث بن الأجهر نحو عبيده وقال:

- خذوا سيدكم كَعب إلى الجواري ليعتنين بجرحه ويُطببنه - ثم أضاف وهو ينظر إلى مجموعة أخرى من العبيد: وأنتم اذهبوا إلى الكعبة وذيعوا عند الناس هذا الخبر: قولوا بأن آزر قد غدر بكَعب ابن سيدنا الحارث وسرق خنجره على حين غرة، ولولا ذاك لما استطاع إلحاق الأذى به، وأخبروا الناس أيضًا أنني عفوت عنه وفاءً لجوار سيد القوم نُمير بن رَبيعة.

عضَّ آزر شفتيه كي لا ينفجر بالبكاء أمامهم، فهو يُفضل أن يوسعه العبيد ضربًا بالأقدام والعصي ولا أن يذيعوا ذلك الخبر الكاذب عند الطائفين حول الكعبة، ولكنه كالعادة صمت ولم يعترض على الأمر حتى لا يَجلب لنفسه مزيدًا من المشاكل، نهض الحارث مغادرًا ومُعلنًا بمغادرته انتهاء المحاكمة بينما لحقه العبد جحش بهذا السؤال:

- ساق هذا الصبي جريحة أيضًا يا سيدي، أنحمله للجواري يُطببنه ؟

لم يكلف الحارث نفسه عناء الالتفات حتى، وقال وهو يسير مبتعدًا:

- بل إلى جبل أبي قُبيس، هناك ستلعق أمه جراحه بالتأكيد.

**

(فوق قمة جبل أبي قُبيس)

رفع آزر رأسه بعد أن فرغ من تذكر أحداث ما بعد ظهيرة اليوم، وراح يتأمل القمر صامتًا وهو يفكر بالشيء الوحيد الذي يتمناه في هذه الحياة؛ فذلك الصبي كانت لديه أمنية واحدة فقط هي أن **يُخلِد اسمه في التاريخ**، لكن الظروف التي وجد نفسه عليها كونه لقيط وسط بيئة تمجّد الأنساب والقبائل وتُقصي الغرباء وتمقتهم، هي ما جعلت تلك الأمنية بالنسبة إليه تكاد أن تكون أكثر بعدًا من المسافة التي تفصله عن القمر.

كان هذا العجز الذي يشعر به الآن هو ما جعله يرغب بمغادرة المكان، فنهض من مكانه وركض مبتعدًا .. بينما ظلت الذئبة تُشيعه ببصرها صامتة لا تدري ما الذي حَلَّ به.

**

هبط آزر من أعلى قمة الجبل،

لم تكن طريق النزول مُعبدة أو مُضاءة، إلا أنَّ الفتى الذي حوى كثيرًا من صفات الذئاب أخذ يهبط الجبل بخفة ومهارة مستعينًا بضوء القمر الخفيف كما لو أنه كان يملك عيونًا تُبصر أسفل قدميه .. وما إن وصل الأرض حتى راح يكمل ركضه بحيطة وحذر كيلا يراه أحد وهو يذهب إلى المكان الذي يقصده.

٥

سار آزر بين الأصنام التي تنهض على امتداد الحرم المكي، تحمله قدمان خفيفتا الخطو حتى وصل الكعبة .. ورغم الباب الذي قد أحكم السَدنة إغلاقه إلا أن جسده الصغير كالعادة وجد منفذًا من بين فُرجتي الباب للدخول؛ كان يشعر براحة غامضة تغمر قلبه كلما دخل جوف الكعبة؛ وهذا ما يدفعه إلى التسلل إلى هناك خلسة كلما أحس بأن العالم ضيقٌ عليه.

جلس آزر في الزاوية ضامًا قدميه إلى صدره ينظر من وراء شعره الناعم المنسدل فوق عينيه إلى هُبل - إله الحرب - والذي لفرط تعظيم العرب وتقديسهم له، كانوا قد خصصوا له مكانًا داخل جوف الكعبة، فأخذ يتأمله دون معنى، وبداخله سؤال وحيد جعل خيطًا من الدموع يسيل على خديه الأمردين المكسوين بطبقة رقيقة من الغبار:

" تُرى لماذا كل الذين بعمره لديهم آباء وأمهات ؟ بينما هو الوحيد الذي جاء إلى الدنيا محرومًا منهما ؟ تُرى ما هو الذنب الذي اقترفه وهو رضيع ليجعل والديه يُقرران هجره وحيدًا في البرية ؟ "

وبينما هو مستغرق بتساؤلاته تلك إذ التقطت أذناه فجأة صوت خطوات تسير في الجوار، فألصق عينه بفُرجة الباب وجعل ينظر من خلالها؛ ليشاهد امرأة تمشي بحذر في الجهة المقابلة للكعبة وهي تتلفت خلفها كل لحظة كيما تتأكد من أحدًا لا يراها ..

**

(المرأة في عباءة الليل)

أدرك وهو يختلس النظر إليها بأن تلك المرأة ليست جارية؛

فجسدها الممتلئ نسبيًا وثيابها النظيفة وحذاؤها المصنوع من جلد الماعز .. كانت كلها أمارات تشير إلى أنها امرأة حُرة: " فما الذي تفعله امرأة مثلها – حُرة – في مثل هذا الوقت المتأخر ؟! .. ولماذا كل هذا القلق يبدو واضحًا عليها وهي تحث خطاها نحو المكان المجهول الذي تقصد الذهاب إليه ؟ "

هذه التساؤلات هي ما حركت الفضول لديه وجعلته يغادر مكانه ليتبعها متسللًا في الأزقة والشِعاب حتى رآها وهي تتوقف أمام دار أحد أكثر الكهنة خطورة ورعبًا وتطرق بابه.

لم يسبق لآزر أن رأى ذلك الكاهن من قبل،

لكنه كان قد سمع عن شكله الذي تقشعر منه الأبدان وتنخلع لمرآه القلوب؛ فهو عبارة عن نصف إنسان: له عين واحدة ويد واحدة وقدم واحدة وكأنه قد شُق إلى نصفين وهذا ما جعل العرب يُلقبون ذلك الكاهن باسم شِق.

**

(الكَاهن شِق)

بحذر شديد: اقترب آزر من نافذة الدار وأرسل إلى الداخل نظرة مختلسة فشاهد حُجرة مُظلمة شُيد سقفها من جريد النخل، وكُسيت حيطانها الطينية بالعظام والجماجم وجلود الحيوانات .. ثم تحركت عيناه إلى الأسفل عندما لمح شيئًا يتحرك على الأرض فأصابه الرعب مما شاهد؛ فقد كان الكاهن شِق يستند إلى الحائط أسفل النافذة ويمد قدمه الوحيدة نحو مبخرة في منتصف الحجرة التي تتصاعد منها سحابة مثقلة ببخور نتن الرائحة، يُشبه رائحة بقايا جثة تحترق.

مدفوعًا برهبة الخوف قرر الفتى أن ينسحب من هناك، لكن فضوله هزم خوفه في اللحظة الأخيرة وهذا ما دفعه لأن يثبت مكانه ويُكمل ما كان قد بدأه.

نظر آزر إلى باب الدار الذي كانت تلك المرأة ما تزال تطرقه وفكر بسؤال منطقي: كيف سيفتح لها الكاهن شِق الباب وجسده على تلك الحالة ؟!

ولكن الأمر الذي لم يكن يعرفه بعد هو: أن لذلك الكاهن خدمًا من المخلوقات التي لا يُعرف لها كينونة يعكفون على خدمته صباح مساء؛ فقال شِق يأمر أحد خدمه:

- **ما جاءت المرأة إلا لأمرٍ إدًا، افتح لها الباب ننظر في أمرها يا حِدًا ..**[٥]

وما إن انتهى مما قاله حتى فُتح الباب من تلقاء نفسه وانبعث صوت غليظ من الهواء يقول للمرأة:

- ادخلي بقدمك اليُسرى، ورددي سبعًا لبيك شِقا.

دخلت المرأة بقدمها اليُسرى وهي تردد بهمساتٍ خائفة (لبيك شِقا) وظلت تُرددها وهي تواصل طريقها نحو الحُجرة المعتمة، ورغم أن الدار صغيرة وليس فيها أحدٌ غير الكاهن المتكئ بجسده المُنشطر على الحائط أسفل النافذة .. إلا أن تلك المرأة كانت تسمع أفواجًا من الأصوات حولها تُشبه أصوات التهليل والتسبيح، هي أصوات الخدم الذين يعكفون على خدمة الكاهن شِق، تُردد خلفها وهي تقول: (لبيك شِقا، لبيك شِقا) حتى أتمتها سبع مرات فصمتت وصمتت الأصوات من حولها.

---

٥ كلمة (إدًا) تعني أمرًا عظيم.

لقد سبق لتلك المرأة - كغيرها من رجال ونساء مكة - أن شاهدت الكاهن شِق مرة واحدة قبل أعوام طويلة وهو يطوف ليلًا حول الكعبة عكس اتجاه الطائفين، مضطجعًا فوق هودج يحمله أربعة من العبيد في تمام ليلة اختفي القمر من سمائها؛ مما يجعلها الآن لا تتفاجأ بجسده غريب التكوين. لكن وجودها معه في حُجرة واحدة هو ما جعلها تخاف وتهمُّ بالتراجع منسحبة؛ فقال يُطمئنها:

- اقتربي يا زوجة عامر بن لُكيز ولا تخافي؛ إنك في مأمن ما دمتِ جواري.

- أتعرفني ؟

قال وهو يكشف عن ابتسامة شيطانية:

- أعرفكِ، وكل من يدنو من حَرم هذا البيت أعرفه.

من خلال تلك الجملة أدرك آزر أن شِق كان يعلم بوجوده عند النافذة، ورغم انكشاف أمره لم يهرب وقرر البقاء مواصلًا استراق السمع؛ لمعرفة سبب ذهاب المرأة إليه في ذلك الوقت.

- وتعرف ما جئتُ إليك من أجله الساعة ؟!

- لقد أُخبرتُ بأن امرأة تأتي في هذه الليلة القمراء تقصُّ عليَّ نبأ رؤياها، فاقصصي عليَّ ما رأيتِ.

قالت المرأة تقص عليه نبأ حُلمها الغريب:

- **رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء، يُضيء بنوره جزيرة العرب.**

وصمتت لبُرهة من الزمن وكأنها خافت حين تذكرت أحداث حلمها الغريب:

- وماذا أيضًا ؟ - قال الكاهن باهتمام - أكملي ..

٦

الحُلم والنبوءة

قالت المرأة:

– رأيتُ أني ألدُ قمرًا يصعد إلى السماء يُضيء بنوره جزيرة العرب، ثم رأيتُ نارًا عظيمة تندلع من المشرق .. ما زال لهبها يعلو ويتصاعد حتى يصل جُرم القمر.

لا يذكر الكاهن شِق متى كانت المرة الأخيرة التي خاف فيها، لكنه لن ينسى أبدًا شعور الخوف الذي أحسّ به هذه اللحظة وهو يُنصت إليها وهي تقصُ عليه نبأ حلمها.

– والعرب – قال مستفهمًا – ألم تسمع للعرب نفيرًا ؟

– سمعتُ صلصلة سيوف تتقارع وجلجلة صهيلٍ تتعالى، وصرخة من بين الصفوف جاءت (قالت للحرب قومي)، ثم التقى العرب بخصمٍ عنيد كان مسربلًا بالسلاح والحديد، ذي قِلاع وقوة وجيشٍ مديد .. دار القتال بين الصناديد .. وشبح الموت فوقهم يحصد الخلق والعبيد .. تصاعد غبار المعركة كثيبًا كئيب حتى حجب وراء ستاره جُرم القمر البعيد.

ظهرت على وجه الكاهن علامات أوحت لها بأن حلمها لا يبشّر بالخير، وهذا ما دفعها لأن تصمت متوقفة عند ذلك القدر من الحلم، لكن شِق كان ما يزال لديه سؤال أخير:

- أكان القمر مكانه حين انقشع عنه الغبار، أم أنه زُحزح عن مداره ؟

- لقد انقطع الحلم يا شِق، ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

كان يعلم أنها تكذب بسبب الخوف؛ فقال يتوعدها بالعقوبة:

- تُسخطين إلى ذات أربعٍ وأربعين، إلا أن تقولي الحق ولا تكذبين.

لم تأخذ تهديده على محمل الجِد وقالت متمسكة بجوابها:

- لقد انقطع الحلم ولم أرَ ما حلّ بالقمر.

لقد وُلد الكاهن شِق في ذات اليوم الذي ماتت فيه كاهنة ذلك الزمان **طُريفة بنت الخير الحِميرية**، قِيل إنها قبل أن تموت قد بصقت من ريقها بفمه؛ فانتقل بذلك علم كهنوتها إليه .. ليصبح كاهنًا لا تُخطئ ا، نبوءة؛ وهذا ما دفعها – دفع تَليدة – لأن تأتي إليه في هذا الوقت المتأخر لتقصّ عليه نبأ ما رأته في منامها الليلة.

قال شِق مؤوّلًا حُلمها:

تَلدين فتاة تُسمينها " قمر" .. تقوم لأجلها معارك وحروب ..

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب ..

قالت مذعورة:

- وهل ستنجو ابنتي من تلك المعارك والحروب ؟

لم يُجب عليها، فعادت تسأله: هل ستنجو ابنتي مما ينتظرها يا شِق ؟

هنا أرسل الكاهن إليها نظرة حادة فهمت من خلالها أن لقاءها به قد انتهى؛ إدراكها بأن صبره قليل هو السبب الذي جعلها لا تغامر بمواصلة الإلحاح عليه .. فأدخلت يدها في جيب ثوبها ثم أخرجت منه صُرة ممتلئة بالدنانير الذهبية دفعتها إليه واتجهت مغادرة نحو الباب، بينما ظلّ آزر سارحًا في مكانه يُفكر بأمر وحيد:

أيُمكن أن يكون هو حارس ابنتها ؟! فينال بذلك ما نصت عليه النبوءة،

ويحقق أمنيته الوحيدة في تخليد اسمه في التاريخ ؟!!

وبينما هو سارح في خياله إذ امتدت إليه يدٌ خفية ألقت عليه القبض وقذفت به إلى داخل الدار، ليجد نفسه وجهًا إلى وجه أمام الكاهن شِق وحدهما في الحجرة المظلمة التي يتصاعد فيها دخان البخور إلى السقف.

٧

ألجمت المفاجأة لسانه وهو يرى تلك العين الوحيدة تُحدق إليه في الظلام، وقد تلا ذلك صوتٌ خشن هو - صوت الكاهن شِق - آمرًا إياه قائلًا:

- ادنُ مني يا فتى !

أراد آزر الهرب، لكنّ قدميه تحركتا إلى الأمام رغمًا عنه وكأنهما لا تُطيعان رغبته.

مدَّ الكاهن يده الوحيدة نحوه .. لكنّ يده توقفت قبل أن تصل هدفها كما لو أن هنالك شيئًا قاهرًا منعها من الوصول، فأخفض يده وقال:

- يبدو أن أمك تحسن تحصينك يا فتى.

- ولكن كيف لذئبة أن تفعل ذلك ؟!

- أيها الحمار الصغير، لا أقصد أمك الذئبة، بل أمك الإنسية.

ارتفع حاجبا آزر لفرط الدهشة، وقال متسائلًا في لهفة:

- أت .. أتعرف أمي ؟!!

- إنها تراك وتحصنك كل يوم؛ ولذلك لا تستطيع يدي أن تصلك.

قال متوسلًا:

- أخبرني كيف أجدها أرجوك .. أرجوك أخبرني ! ! !

في تلك اللحظة الحاسمة قُذف به - بآزر - إلى خارج الدار بذات اليد الخفية التي أدخلته .. وقد همَّ بتحطيم الباب والدخول ليعاود سؤال الكاهن عن أمه .. ولكن صوتًا ما، هادئ، وقوي، وحنون، في ذات الوقت كصوت المطر، همس في أذنه محذرًا إياه تلك اللحظة من الدخول:

- اهرب يا فتى؛ إنك إن دخلت، لن ترى أمك أبدًا.

كانت تلك الكلمات كافية لأن تجعله يركض مبتعدًا من هناك متخليًا عن فكرة الدخول، دون أن ينتبه إلى الشخص الغامض الذي كان يراقب المشهد من بعيد وهو يخفي وجهه وراء اللثام .. والذي ما إن تأكد من أن آزر قد ابتعد من هناك حتى ترك مخبأه وسار متجهًا نحو دار الكاهن شِق ليطرق بابه.

**

(المرأة المجهولة ذات اللثام)

ما إن فُتح باب الدار حتى ولجت منه امرأة غريبة تغطي وجهها بلثام أسود لا يكشف إلا عن عينين تخبئان فيهما أسرارًا دفينة .. بدت المرأة أنها في الثلاثين من عمرها، تسير بخطوات غير مرتبكة تشي بأن تلك ليست زيارتها الأولى للمكان:

- إلى متى سأظل أُخفي عنه الحقيقة يا شِق ؟!

قال الكاهن وهو ينظر إليها بعينه الوحيدة:

- إلى أن يأتي اليوم الذي لا تُهمك فيه حياته؛ فعندما يعرف الناس سِر هذا الصبي، ويعرفوا حقيقة نسبه فإنهم لن يُبقوه على قيد الحياة لحظة واحدة.

- ولكن قلبي يؤلمني عليه.

- اكتمي السر؛ ولا تحفري قبره بلسانك.

لاحقًا وما إن غادرت المرأة الغريبة ذات اللُّثام دار الكاهن حتى طار غراب أسود كان يستقر طوال الوقت فوق غصن شجرة قريبة من الدار يسترق السمع إلى كل ما يدور فيها، لينقل الكلام إلى أذن سيدته التي كانت تنتظره فوق دارٍ وحيدة تستقر فوق قِمة جبل يُدعى (**مجر الكبش**).

٨

صِنديد العرب

كان لدى أهل مكة عادة تُقام مرة واحدة كل خمس عشرة سنة؛ حيث تُنصب بين جبال الوادي حلبة كبيرة للمصارعة، يخوض فيها فتيان القبائل العربية ممن تكون أعمارهم دون الخمسة عشر عامًا. يخوضون فيها صراعًا داميًا للحصول على اللقب (**لقب صِنديد العرب**) .. وقد كان يجتمع لتلك المسابقة حشد كبير من أهل جزيرة العرب وبلاد الشام وأرض الرافدين وسكان قارّة إفريقيا، يتخذون من الجبال المحيطة بالحلبة مقاعدًا للجلوس فتغدو وكأنها مدرجات رومانية، يشاهدون من خلالها النِزالات بهدف المتعة أو جني الأموال التي تُكسب من خلال عقد الرِهانات على الفتية المتصارعين.

وقد كانت لتلك المسابقة - مسابقة صِنديد العرب - أهمية عظيمة في نفوس الملوك والأمراء وشيوخ القبائل وعامة الناس، كيف لا والفائز فيها من أبنائهم يُكتب اسمه على رقعة جلد تُعلق على أستار الكعبة حتى موعد المنافسة القادمة؛ فيذاع اسمه واسم والده وقبيلته بين العرب قاطبة فينال بذلك شرفًا ومنزلة، ومكانة عظيمة.

ولما كان موعد المسابقة قد اقترب راح أهل الوادي بطبيعة الحال ينشغلون بالحديث عنها، وبدأ السادة في التكفل بكل ما يَلزم لإعداد حلبات النزال، واستقبال الوفود التي ستضج بهم مكة لمشاهدة الحدث .. وأثناء ذلك كانت المربية السمراء بُثينة .. تقوم بواجباتها اليومية المعتادة من ترتيب الحجرات وتنظيف الدار، وبينما هي كذلك إذ سمعت فجأة أصوات أقدام غريبة آتية من الخارج، في الوقت الذي انبعث فيه بداخلها إحساس غير مريح يخبرها بأن هنالك شيئًا سيئًا قد وقع؛ فألقت مكنسة القش من بين يديها وذهبت لتفتح الباب وتشاهد أمامها آخر من كانت تتوقع زيارته ذلك النهار: كان الزائر هو الذئبة حواء التي قفزت نحوها وعضت بأنيابها طرف ثوبها ثم أخذت تسحبها إلى الخارج وكأنها بذلك تطلب منها أن تتبعها، أدركت بُثينة على الفور أن المسألة متعلقة بآزر؛ وهذا ما دفعها لأن تركض منساقة خلف الذئبة وقلبها يخفق خوفًا مما يكون قد حدث للصبي ..

**

(السوق)

قادتها الذئبة نحو السوق الذي كان يحتشد في منتصف باحته جمع غفير من الناس حول شيء ما .. قامت بثينة تشق صفوف الزحام مدفوعة بمزيج من الفضول والخوف حتى وصلت إلى ما كان الناس يحتشدون حوله؛ لتشاهد أمرًا جعل ملامح الرعب تعتلي وجهها: **بركة من الدماء يتمدد فوقها آزر وقد استقر في بطنه خنجر حاد.**

حاول أحد العارفين - وهو رجل يعمل مداويًا - أن يتقدم لفحصه، لكن الذئبة انبرت من بين الحشود بطريقة مفاجئة وحاوطت الصبي بجسدها لتدافع عنه معتقدة أنهم يريدون به شرًا؛ فتراجع المداوي إلى الوراء مخافة أن تؤذيه الذئبة الغاضبة، بينما تقدم إليها الشخص الوحيد الذي كان يستطيع تهدئتها وهي بُثينة وقالت تصيح عليها:

- ابتعدي عنه يا حواء ! ! !

تسببت تلك الصرخة بتعزيز نزعة الخوف لدى الذئبة؛ ما جعلها تفقد القدرة على ضبط انفعالها، فقامت بمهاجمة بُثينة وإسقاطها أرضًا بعد أن صنعت في وجهها ثلاث ندبات بمخالبها، صاح أحد الرجال وهو يرى ذلك المنظر:

- هذه الذئبة لا تترك لنا خيارًا آخر.

ثم أخرج سيفه، وفعل بقية الرجال مثله عاقدين العزم على قتلها ..

٩

كانت الذئبة تستطيع الفرار من هناك، ولكنها قررت البقاء وحماية ابنها حتى لا تفقده كما فقدت جروها قبل اثنتا عشر عامًا؛ فحاوطته بقوة أكبر وأغمضت عينيها حتى لا يُصيبها الجزع وهي ترى الموت يقترب منها فتحثها غريزة البقاء لديها على الهرب.

لم تصلها سيوف الرجال،

بل وصلت إليها يدٌ حنونة تبعها صوت معتذر يقول:

- لقد أخفتكِ يا حواء، وما كان يجب أن أصرخ عليكِ هكذا.

فتحت الذئبة عينيها لتشاهد أمامها بُثينة تنظر إليها بوجه أسمر حلو رقيق لم تزده ندبات المخالب وقطرات الدم الخفيفة النازفة منه إلا جمالًا:

- اهدئي يا حواء .. أعدكِ ألَّا يؤذيه أحد.

أحست الذئبة بالأمان فتنحت جانبًا، ليتقدم المداوي على الفور ويبدأ بفحص الجرح والجريح قبل أن يُعلن قائلًا:

- لا أظن أنه سيعود إلى الحياة.

ما إن سمعت بُثينة ذلك حتى سقطت على ركبتيها وتناثرت دموعها على الأرض؛ وظلت تنظر نحو الجسد الساكن أمامها بشعور هو خليط ما بين الحزن الشديد والندم.

حزينة هي على سماعها ذلك الخبر، ونادمة لأنها استمعت إلى الكاهن شِق ليلة أمس، عندما ذهبت إليه مُتلثمة ونصحها بألّا تخبر آزر بالحقيقة.

**

(العامرية)

وبينما هي تبكي إذ أحست من خلفها بحركة ملحوظة، وبدا الأمر كما لو أن الحشود من خلفها كانوا يفسحون الطريق لشخص قادم .. وبالفعل ما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى ظهرت من بين الصفوف امرأة متقدمة في العمر يستقر فوق كتفها الأيسر غراب أسود ..

سارت المرأة بين الناس حتى وصلت إلى آزر وانحنت عليه ..

كان اسمها - **اليَمامة بنت أدحج العامرية** - وقد دارت حولها الكثير من القصص الغامضة التي جعلت البعض يعتقدون أن تلك المرأة ليست حقيقية، بل ربما تكون أسطورة متخيلة. إحدى تلك القصص تقول إن العامرية في صِباها كانت تتمتع بجمال غير مسبوق جعل شيطانًا أسودَ من الجن اسمه (أعصم) يعشقها ويتزوجها.

تقول القصص أيضًا إن ذلك الشيطان قد كشف إليها بعضًا من العلوم المحرم على بني الإنس معرفتها؛ وهذا ما أنزل عليه غضب قبيلته ودفعهم للسعي إلى قتله، ولكنهم لم يقتلوه؛ ذلك أنه اختفى قبل أن يصلوا إليه ولم يستطع أحد حتى اللحظة - لحظة ظهور العامرية في السوق - وعلى كتفها يستقر الغراب الأسود أن يعثر عليه أو يتكهن حتى بمكان وجوده.

ولما راح الناس ينسجون حولها الأخبار الكاذبة والتكهنات المُلفقة المُبالغ فيها؛ قررت العامرية أن تعتزلهم لتُقيم مع غرابها فوق قمة جبل ليس ببعيد يُدعى (**مجر الكبش**)، وقبل أن تغادر أشار عليها الكاهن شِق الذي كان يعرف حينها مدى حُبها وتعلقها بزوجها قائلًا:

- تمسكي بأستار الكعبة يا عامرية .. واطلبي من آلهة العرب أن ينفثوا فيكِ روحًا من السَلوى والنسيان، تُشفيكِ من بلائك القائم.

وعملًا بتلك النصيحة، سارت العامرية نحو الكعبة، لكنها فعلت بعكس ما أشار عليها الكاهن به؛ حيث جرحت كفيها بسكين حادة، ثم نشبثت بأستار الكعبة بكفيها النازفتين دمًا، وأقسمت بصوتٍ خرج من صميم قلبها:

- قسمًا بالدم النازف على الأستار، والدموع الحارقة من تحت الأجفان قسمًا بأحزان الثكالى وأنين اليتامى وقرع الصواعق وأجيج النار .. قسمًا بأوجاع قلبي وجهنم المستعرة بين الضلعان .. قسمًا بالكعبة وبطحائها، ونجد وكُثبانها، والحِجاز وأفلاكها، وبحور الأرض وقيعانها لن أنساك وسأثأر.

لقد شهد الطائفون ذلك القسم وتناقلوه حتى ذاع ذكره في جزيرة العرب كلها. وهذا ما جعل الناس الآن ينظرون بتعجب إلى العامرية، ويتساءلون عن السبب الذي دفعها لأن تحنث بقسمها وتغادر جبل مجر الكبش ذلك النهار لتظهر بينهم في السوق .. تأملت العامرية جرحه وأدركت أن الطعنة التي تلقاها الصبي خطيرة بحق؛ فلو أن صبيًا آخر بعمره تلقاها لكان قد مات على الفور، ولكن يبدو أن حليب الذئاب الذي نشأ عليه في صغره قد أكسبه بعض القوة التي ردعت عنه الموت.

وبينما العامرية تواصل فحصه إذ انتبهت إلى ملاحظة دقيقة لم ينتبه عليها أحد وقالت كما لتتأكد:

- ألمح أحد منكم من هاجمه ؟

أخبرها الناس أنهم لم يشاهدوا المهاجم؛ فكانت تلك الإجابة بالنسبة إليها دليلًا يُثبت صحة الشيء الذي لاحظته .. قامت العامرية بعد ذلك بحمل آزر بين يديها وابتعدت به من هناك، يتبعها بشكل تلقائي كلٌ من بُنينة والذئبة، بينما يطير فوق رأسها غرابها الأسود فاردًا جناحيه ليُظللها من أشعة الشمس.

بعد رحيلها:

دارت العديد من الفرضيات التي حاول الناس بها أن يجدوا تفسيرًا يشرح سبب قدومها دون أن يتوصل أحد منهم إلى سبب معقول، ولكن الشيء الذي أجمع عليه الأغلبية هو: **أن تلك المرأة لم تغادر معتزلها هذا النهار وتظهر فجأة في السوق إلا لشيء جلل، أيكون ذلك الصبي ابنها ؟!**

لا أحد يعرف ..

١٠

فوق جبل مجر الكبش، وداخل الدار الوحيدة التي تنهض فوق قِمته، قامت العامرية بتمديد آزر - الفاقد الوعي - فوق السرير، بعد أن نظفت جرحه وقامت بكيّه مستخدمة قطعة من الحديد الحامي، ثم جلست مقابلة له وغرابها الأسود يستقر فوق كتفها الأيسر، وقالت بأسف لبُثينة التي تنتظر سماع الخبر:

- هالته تُنذر باقتراب أجله.

لم تكن بُثينة قد سمعت بذلك المصطلح من قبل - مصطلح الهالة - فبانت الحيرة على وجهها؛ وهذا ما دفع العامرية لأن تشرح لها: فقامت وأغلقت ستائر الحجرة وأشعلت شمعة كانت تحتفظ بها في أحد أدراجها انبعث منها ضوء أزرق نادر ثم قالت بعد ذلك وهي تُشير نحو الصبي:

- ركزي نظرك إليه الآن ..

نظرت بُثينة إلى حيث أشارت إليها العامرية ولكنها لم تلاحظ شيئًا غريبًا؛ فقد كان آزر - مستغرقًا في غيبوبته - يستلقي أمامها فوق السرير مُحاطًا بجسد أمه الذئبة:

- لا أرى فيه ما يدعو إلى الغرابة.

- انظري جيدًا - قالت العامَرية - انظري جيدًا ولا تتعجلي.

عادت تنظر بتركيز نحو آزر وقد استغرقت هذه المرة وقتًا أطول وهي تُحدق إليه، حتى كادت أن تُعلن استسلامها مجددًا، لكنها في اللحظة الأخيرة انتبهت إلى أمر جعل عينيها تتسعان في دهشة وغرابة:

- إنني أرى عجبًا.

- أتستطيعين وصف ما ترين يا بُثين ؟

- إنني أرى نورًا رقيقًا يُحيط بجسده كالسوار.

- هذا النور الذي يُحيط بجسده مثل السوار يُسمى (الهالة) وهي مرآة الروح. كل إنسان حي يملك هذه الطاقة النورانية حول جسده.

ثم أضافت تقول:

- والآن، ركزي نظرك إلى هالته وأخبريني عمّا ستلاحظين.

لاحظت بُثينة أمرًا جعلها تُصاب بنوبة من القلق الشديد:

- الهالة التي تُحيط به !

- ما بها ؟

- إنها آخذة بالتفكك والتلاشي؛ وكأن هنالك قوة خفية تضغط عليها وتحطمها شيئًا فشيئًا.

قالت ذلك، ثم توقفت عن الكلام فجأة؛ إذ إنها أدركت الحقيقة من تلقاء نفسها: **عندما تنتهي الهالة النورانية حول جسد آزر، سيكون قد فارق الحياة إلى الأبد.**

- ألا تستطيعين مساعدته ؟

- أستطيع .. ولكنني لا أعتقد أنه سوف يقبل المساعدة.

- كيف يقبل أو يرفض وهو غائب عن الوعي ؟

- جسده غائب، لكن روحه تُدرك ما حولها.

- اقنعيها بالعودة إذًا.

- الأمر ليس بهذه البساطة، فالأرواح تُصبح حرة بعد خروجها من الأجساد؛ ويكون من الصعب إقناعها بالعودة. إن الأمر في هذه الحالة يشبه ذهابك إلى سَجين نال حريته لتوه، فتحاولين إقناعه بالعودة إلى سجنه مجددًا.

- لقد عانى هذا الصبي كثيرًا في حياته أيتها العامَرية؛ لقد هجرته والدته وهو ما يزال رضيعًا .. فوجد نفسه يعيش تحت رعاية هذه الدّئبة وسط الجبال والوديان مثل حيوان متبوذ .. ومن غير المعقول أن نتركه الآن يموت بهذه الطريقة دون أن يحظى بفرصته الكاملة في الحياة.

حركت تلك العبارة شيئًا في قلب العامرية، شيئًا يُشبه الحنان الذي يربط الأم بابنها، وهذا ما دفعها إلى أن تتجه نحو الدّئبة التي كانت ما تزال تحاوط آزر وتقول لها:

- ما رأيكِ يا حواء أن ترافقيني في هذه المحاولة ؟

هنا اندهشت بُثينة مما رأته: فمن المعروف أن الذئبة حواء لا تتقبل الغرباء وتظهر تجاههم عداوة مفرطة، ولكنها الآن تتقبل العامرية بشكل غريب وتُظهر لها سلوك الوِد والأُلفة. مدّت العامَرية يدها ومسحت بها جبين الذئبة؛ وهنا تعاظمت دهشة بُثينة حين لمحت وشمًا عجيبًا يومض في جبين حواء كأنه الشمس والقمر ثم يختفي:

- ما هذا الوشم الذي ومض في جبين حواء ؟

- إنه ختم انتمائها لسُلالة نبيلة، تُسمى السُلالة اليَعقوبية.

ظلت بُثينة صامتة تنتظر الشرح، بينما أكملت العامرية تخبرها عن قصة تلك السُلالة:

- لقد جاء في كتاب (الخَبر) أن ..

ما إن سمعت بُثينة اسم "الخَبر" حتى أصاخت السمع أكثر لما سيُقال. فمن المعروف أن ذلك الكتاب النادر يحوي قصة الخلق وأنبياء الأرض كما ورد ذكرها في توراة موسى وإنجيل عيسى وتَلمود اليهود. قليلون فقط من يَملكون كتاب الخَبر وقد كانت العامرية واحدة منهم.

قالت العامرية:

- عندما ضاق الإخوة العشرة ذرعًا بأخيهم الأصغر مكروا له وألقوه في البئر، ثم عادوا مساءً لأبيهم يحملون قَميصًا مُلطخًا بالدماء ليخبروه أن الذئب أكل أخاهم يوسف؛ في تلك الليلة يا بُثينة، وبينما كان النبي يَعقوب يبكي حزنًا على فقد ابنه، إذ جاء إليه زائر غريب.

- من يكون الزائر ؟

قالت تخبرها عن الزائر:

ـ كان أمير زُمرة الذئاب، وقد أنطقه الله حيث كلم النبي يَعقوب بهذه الكلمات قائلًا: " **إنني وزُمرتي أبرياء من دم ابنك يوسف؛ فقد حرّم الله علينا دماء الأنبياء** "

واصلت العامرية وهي تُربت على رأس الذئبة حواء وتقول:

ـ هذه الذئبة يا بُثينة تنحدر من سلالة ذلك الذئب الذي كلم النبي يَعقوب؛ وهذا الوشم الذي رأيته يومض في جبينها هو ختم انتمائها لتلك السلالة النبيلة.

بُثينة تدرك أن الموقف الحساس الذي هم فيه الآن لا يتسع لذكر مثل تلك القصة، ما لم تكن مهمة في هذا التوقيت:

– ما علاقة هذه القصة بآزر ؟

– يتميز أفراد السلالة اليَعقوبية بصفاء هالة روحية نادرة تجعلهم قادرين على أن يكونوا مثل المراكب الشراعية التي تنقل العابر من ضفة إلى أخرى.

قالت مستنتجة:

– هذا يعني أنكِ سوف تمتطين حواء للذهاب إلى حيث هالة آزر ؟!

– نعم؛ فإنها الوحيدة القادرة على أن تنقلني إلى هناك.

– وكيف ستقنعيه بالعودة ؟

– لا أعرف، ولكنني سأحاول.

قالت عبارتها تلك ثم تربعت في منتصف الغرفة، فجاءت الدُبة حواء تجلس إلى جوارها وكأن فطرتها كانت تخبرها بما يجب عليها أن تفعل استعدادًا لتلك الرحلة.

قالت العامرية:

- كل ما أحتاجه منك في الساعة القادمة يا بُثينة هو أن تبقي ساكنة مهما حدث، وألّا تمسي أيًا من أجسادنا مهما كانت الظروف حتى لا نُحبس في العالم الآخر إلى الأبد.

- لن أقرب جسديكما مهما حدث.

هنا أغمضت العامرية عينيها وبدأت تتمتم ببعض الكلمات.

كانت بُثينة وهي تُصغي إلى تلك التمتمات تُدرك جيدًا أنها ليست بنفثات الكهانة، أو طلاسم السحر إنما هي تراتيل خاصة لم يسبق أن سمعت بمثلها يومًا.

لم يمضِ وقت طويل على ذلك حتى صمت فم العامرية، وراحت تضع جُل تركيزها على فعل شيء واحد مُحدد وهو ما يسميه الضالعون في العلم بطور الإسقاط:

وهو إسقاط الروح عن جسدها والتحرر منه.

**

وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى شاهدت بُثينة أغرب مشهد كانت تراه في حياتها، وما كانت ستصدقه لو أنها لم تره بنفسها: حيث رأت شيئًا أشبه بالهالة الزرقاء النجمية تنفصل عن جسد العامرية .. وتمتطي هالة زرقاء نجمية أخرى انفصلت عن جسد الذئبة حواء .. ثم رأتهما وهما تنطلقان بسرعة السهم تتبعهما هالة نجمية ثالثة – هي للغراب – نحو آزر الممدد فوق السرير لتغوص الهالات الثلاثة معًا في جسده عند موضع القلب وتختفي داخله ..

وهكذا لم يبقَ في الحجرة سوى ثلاثة أجساد هامدة؛ أجساد العامرية والذئبة والغراب، تجلس أرضًا وتتنفس ببطء، بينما ينبعث من كل واحدٍ منها خيطٌ نجميٌ أزرق ينتهي عند موضع قلب آزر. أثناء ذلك المشهد العجيب كان على بُثينة أن تنتظر نتيجة ما سيحدث في صمت وصبر وترقب.

١١

يحسب الإنسان نفسه جرمًا صغيرًا وفيه ينطوي العالم الأكبر[٦]

انتقل الثلاثة إلى العالم الخاص بآزر، وساروا فيه يقطعون السماء والبحور والقِفار، حتى وصلوا إلى قمة جبلٍ عالٍ كان يجلس على حافته فتىً صغير يُمرجح قدميه في الهواء، بينما يبتسم سعيدًا وعيناه تُحدقان إلى الفراغ.

ما إن أحس آزر بقدومهم حتى هرب من هناك، كادت الذئبة أن تتحرك لملاحقته، لكن العامرية أمرتها بعدم التحرك؛ فهي تُدرك تمامًا حساسية الموقف: إنهم الآن داخل العالم الخاص بآزر. وبالتالي، فإن أي خطأ يُقدمون عليه قد يُعرضهم للطرد الأبدي. لذلك عليهم أن يتصرفوا بحكمة إن كانوا يُريدون تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله.

---

٦ النص الأصلي للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر "

وبالرغم من أن آزر كان قد هرب من هناك، إلا أن العامرية تُدرك بفطنتها أن فضوله لن يسمح له بالابتعاد كثيرًا؛ وعليها فقط أن تُلقي إليه بالطُعم المناسب لتغريه على إظهار نفسه:

- لماذا طعنت نفسك اليوم في السوق يا آزر ؟

بانت ملامح القلق على وجهه وهو يختبئ خلف صخرة قريبة، وتساءل في نفسه عن الطريقة التي عرفت بها تلك المرأة سره رغم أنه كان قد تلفت حول نفسه أكثر من مرة ليتأكد من أن أحدًا لا يراه قبل أن يُنشب نصل الخنجر في بطنه.

قال وهو يكشف عن مخبئه:

- كيف عرفتِ أنني من طعنتُ نفسي ؟

- لأنه ليس من المعقول أن تتلقى مثل تلك الطعنة وسط سوق يضج بالباعة والزبائن، دون أن يلمح أحدٌ منهم هوية المهاجم. ثم بالنظر إلى زاوية الطعنة ومدى عُمقها في جسدك، يتضح جليًا أنك من أقدمت على طعن نفسك بنفسك.

صمت آزر وأخفض رأسه؛

فكان صمته ذاك دليلًا على اعترافه بأنه الفاعل:

- أتظن أن ما فعلته كان صوابًا ؟

دون تردد، همس قائلًا:

- لا ..

ثم مكث ينتظر من تلك المرأة الغريبة سيل الكلمات المعاتبة والنصائح التي لا تنتهي كما تفعل معه مُربيته بُثينة في العادة عندما يتصرف بطريقة خاطئة، ولكن على عكس ما كان يتوقع؛ أظهرت المرأة تفهمًا نادرًا وهي تقول:

- أنا لا ألومك؛ فلا بد أنك تملك أسبابك الخاصة.

عند الاعتراف بالخطأ يفوز الذي يتفهم، الذي يعذر، الذي يُسامح لا الذي يَكيل العتابات والنصائح.

- ولكن أتستطيع أن تخبرني عن السبب الذي دفعك لهذا ؟!

ردة الفعل المتفهمة تلك التي أبدتها المرأة الغريبة، كانت هي الدافع الذي جعل آزر يشعر بالراحة تجاهها فيقترب ويجلس أمامها دون حذر ويخبرها عن السبب:

- لقد أخبرني الكاهن شِق أن أمي تراني كل يوم.

على الرغم من فراسة العامرية ونباهتها، إلا أنها لم تفهم كيف لخبر كهذا أن يجعله يُقدم على تلك الفعله:

- وكيف لخبر كهذا أن يدفعك للقيام بطعن نفسك ؟

فتح آزر فمه ليجيب ولكنه غصَّ بدموعه فصمت؛ هو الذي حرامٌ في شريعته أن يبكي أمام أحد؛ اختار أن يصمت لأنه خاف أن يفتح فمه فتذرف عيناه الدموع أمام الغريبة.

كانت لحظة الصمت تلك هي ما أعطت العامرية الفرصة لتحاول تخمين الإجابة بنفسها؛ وما هي إلا لحظات بعد ذلك حتى اتسعت عيناها في دهشة عندما توصلت إلى الإجابة: **فبعد أن أخبره الكاهن أن أمه تراه كل يوم؛ ذهب إلى السوق وتعمد أن يطعن نفسه في وضح النهار، معتقدًا أنه بذلك سوف يُثير غريزة العاطفة لدى أمه الإنسية ويدفعها للكشف عن هويتها عندما ترى ابنها يسقط في السوق بطعنة الخنجر، ولكن أمه لم تأتِ فكان عدم قدومها بالنسبة إليه أشدَّ ألمًا من الطعنة نفسها.**

- السادة والعبيد، النساء والرجال، الشيوخ والفتيان، كل الناس يكرهونني ورغم ذلك جاؤوا لرؤيتي في السوق حين أُصبت .. كلهم جاؤوا إلا أمي .. أتعتقدين أنها تكرهني أكثر منهم لذلك لم تأتِ ؟

لا تذكر العامرية متى كانت المرة الأخيرة التي هزها شيء مثل هذه المرة؛ وهذا ما جعلها ترغب بمساعدته أكثر:

- أعلم أن الأمر يؤلمك؛ فلا شيء أقسى من شعور التخلي، ولكن عليك ألَّا تتعجل بالحكم عليها؛ فالوقت يمضي في عجلة دائرية .. دعه يمضي الآن وسيعود إليك يومًا بالحقيقة.

- لا توجد حقيقة تشفع لأم ذنب هجر ابنها الرضيع.

اقتربت العامرية منه بينما غرابها يستقر فوق كتفها الأيسر، راحت حواء تحيط به كما لو أنهم جميعًا يوفرون له الدعم. قالت وهي تنظر إلى عينيه المُعتقتين بالحزن:

- كان هنالك رجلٌ أراد أن يقطع الضفة الأخرى من البحر؛ فتبرعت إحدى السفن بنقله دون مقابل، وبينما كان البحارة منشغلين في أعمالهم، عمد ذلك الرجل إلى خلع أحد الألواح الخشبية، ما عرّض السفينة للغرق .. أخبرني يا آزر عن رأيك بهذا الرجل وبما قام بفعله ؟

- جاحد، ناكرٌ للمعروف.

- لكن الرجل لم يصنع ذلك الأمر عبثًا؛ لقد أفسدها لأنه يعلم بأن هنالك ملكًا وراءهم يأخذ كل سفينة غصبًا؛ فأراد بصنعته تلك أن يَعيب السفينة، فلا يجد الملك فيها ما يُغريه لسرقتها .. أخبرني الآن يا آزر: أما تزال ترى ذلك الرجل جاحدًا، ناكرًا للمعروف ؟

- لا.

- ما الذي جعلك تغير حُكمك عليه بهذه السرعة ؟

- لأني عرفت الحقيقة.

وبعد أن نجحت في إيصال درسها إليه؛ انعطفت به نحو الموضوع الأساسي قائلة:

- ربما كان الكاهن شِق مُحقًا حين قال إن أمك تراك كل يوم .. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها قادرة على إظهار هويتها لك، فربما كان لديها سرٌ يمنعها من فعل ذلك يا آزر .. وقد يكون هذا السر أيضًا هو ما دفعها للتخلي عنك في الماضي، وهو نفسه ما يدفعها في الوقت الراهن لأن تواصل تخفيها عنك.

وصمتت قليلًا كيما تتيح لعقله الفرصة ليستوعب كلامها قبل أن تواصل قائلة:

- لا تكن كالحمار تحمل أسفار الماضي على ظهرك؛ فمن يحمل الماضي تكبو قدماه .. اعتزل ما لا يسعك تغييره إلى ما يسعك فعله. وفكر في مستقبلك وفيما يجب عليك أن تصنعه اليوم لتكون ما تريد أن تصبح عليه غدًا.

قال معاندًا:

- لا أريد أن أكون شيئًا مهمًا.

- لا أعتقد أن هذه كانت رغبتك بعد أن استمعت إلى نبوءة الكاهن شِق، أليس كذلك ؟

بدهشة:

- عن أية نبوءة تتحدثين ؟

أجابته بذات الكلمات التي نصّت عليها نبوءة الكاهن:

" تلدين فتاة تُسمينها قَمر .. تقوم لأجلها معارك وحروب

حارسها يا حارسها .. يُخلد اسمه في تاريخ العرب "

- كيف عرفتِ بهذه النبوءة ؟

- ليس مهمًا أن تعرف، المهم هو أن تخبرني عما إذا كنت تُريد أن تُصبح حارس الفتاة التي سيكون اسمها قَمر أم لا ؟

١٢

حارس القمر

قال دون تردد:

- نعم، أريد أن أُخلد اسمي في تاريخ العرب ولكن كيف لفتىً مجهول عديم النسب مثلي أن ينال ذلك المجد ؟

- خطوتك الأولى في هذا الطريق ستكون عبر فوزك بلقب صِنديد العرب؛ فهذا اللقب هو الذي سوف يجعل لك مكانة بين الناس كافة وأهل الوادي خاصة، وهو الذي سوف يُمهد لك الطريق لاحقًا لأن تكون حارس القمر الذي سوف يخلد التاريخ اسمه.

- ولكن جميع المشاركين في المسابقة سوف يجلبون أقوى فرسان الجزيرة وما حولها من ممالك وأصقاع لتدريب أبنائهم على فنون الحرب والقتال؛ وهذا ما سيجعلني الخصم الأضعف بينهم.

- هنا يأتي دوري.

- عن أي دور تتحدثين ؟!

- أنا سأكون مدربتك.

قال مستهينًا:

- أقول لكِ أنهم سيجلبون أقوى الفرسان من أصقاع الجزيرة وما حولها، بل وربما يجلب الآباء لأبنائهم مدربين من فارس والروم واليمن وما حولها بينما أنا تدربني امرأة ؟!

مدت العامرية يدها الهزيلة المخضبة بنانها بالحناء وقالت:

- وافق على شرطي يا فتى، وسأجعلك تحوز اللقب.

- لماذا أراكِ تتحدثين بكل هذه الثقة ؟

- لأنك إن كنت تعتقد أن البطولة حِكر للرجال، فعليك أن تعرف أن النساء مصانع الأبطال.

دفعته ثقتها بنفسها إلى أن يمد يده نحوها مصافحًا، ولكنها أبعدت يدها في اللحظة الأخيرة ولم تصافحه:

- هنالك شيئان يجب أن توافق عليهما أولًا.

- ما هو الشيء الأول ؟

- الطاعة التامة.

- موافق، ماذا عن الشيء الثاني ؟

قالت:

- الشيء الثاني هو أنك لن تحبني وأنا لن أحبك، ولن تعطف عليَّ ولن أعطف عليك. أنا بالنسبة إليك امرأة تقوم بتدريبك لأجل وضعك على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بطريقة صحيحة فسوف تصل إلى حُلمك غدًا.

قال يُردد شرطها كما ليُثبت لها مدى جديته:

- لن أُحبك ولن تحبيني، ولن يعطف أحدنا على الآخر، أنت بالنسبة إليّ امرأة تقوم بتدريبي لوضعي على المسار الصحيح الذي إن اتبعته بالطريقة الصحيحة سأصل إلى أن أكون حارس القمر. أنا موافق.

- لم ينتهِ الأمر يا فتى، فهنالك ما ستدفعه مقابل تدريبي لك.

- ولكنني لا أملك ما أدفعه لكِ ! ولو عرضتِني في سوق النِخاسة للبيع، لما دفع أحدٌ عليَّ درهمًا واحدًا.

- ليس مالًا تدفعه، بل عهدًا تقطعه.

ردد آزر خلفها متعجبًا:

- عهدًا أقطعه ؟

- نعم وإنه الأهم؛ وهو ما دفعني لأن أغادر جبل مجر الكبش.

- وما هو هذا العهد الذي يُهمك إلى هذا الحد ؟!

- وافق عليه الآن وسأخبرك به لاحقًا.

- ولكن كيف أتعهد لكِ بتنفيذ شيء لا أعرفه ؟!

- هذا شرطي أيها الفتى.

قالت العامرية ذلك ثم عادت تمد يدها الهزيلة المخضب بنانها بالحناء وتسأله:

- أأنت موافق ؟!

ظلت يدها ممدودة في الهواء لمدة طويلة وآزر ينظر نحوها بتردد، إنه لا يعرف ماذا عليه أن يصنع، أيتعهد لها بشيء لا يعرفه ؟! .. أم يظل عالقًا في عالم الموت إلى الأبد ؟!

الباب الثاني

١

في صباح اليوم التالي، وعند ارتفاع قرص الشمس من وراء قِمم الجبال الحجازية، تفاجأ أهل الوادي بمشهد جعل الجميع يُحدق نحوه بتعجب، فقد شاهدوا اليمامة بنت أدحج العامرية تسير وسطهم وغرابها يطير فوق رأسها فاردًا جناحيه يُظللها من أشعة الشمس، بينما يتبعها آزر والذئبة وجميعهم يتجهون نحو التلة التي تنتصب عليها قاعدة خشبية ضخمة عُلِّق عليها طبل كبير يُسمى طبل النداء.

توقفت العامرية عند سفح التلة ونظرت نحوه:

- اذهب وأفعل كما أخبرتك يا آزر.

- أخاف ألَّا يقبلني أحد.

وضعت يدها على كتفه وقالت:

- راقب كلماتك أيها الفتى .. فما تؤمن به حيال نفسك هو ما يُحدد المكان الذي سوف تصل إليه أقدامك غدًا؛ هذا هو درسك الأول: على قدر إيمانك بنفسك تتسع لك رقعة الأرض.

كان قرع الطبل يُعد بمثابة طلب الانضمام إلى المسابقة. يكفي أن يوافق عليه سيدٌ واحدٌ فقط فيكون قارع الطبل بذلك قد نال القبول الرسمي للمشاركة في نزالات صناديد العرب، ولكن ما إن تقدم آزر وأصبح يقف على بعد ذراعٍ من الطبل حتى خارت عزيمته؛ إنه يدرك أن السادة لن يقبلوا بواحد مثله، وهذا ما جعله ينظر إلى الوراء بنظرة منكسرة ويهمس قائلًا:

- دعينا نرجع، أرجوكِ.

في الجهة المقابلة كانت العامرية تدرك أهمية تلك المسابقة؛ وتدرك أن فوزه فيها سيجعل له مكانة بين العرب، ويُمهد له الطريق لأن يصبح حارس القمر فينال اسمه الخلود في التاريخ، ولذلك هو بحاجة لحافزٍ خاص يشجعه على قرع الطبل:

- سوف يمتلئ بطن الوادي بالزوار من جميع أصقاع الأرض لمشاهدة النزالات. والدتك قد تكون ضمن الحضور؛ فتشاهدك وأنت تقاتل وتنال اللقب، ألن يكون ذلك شيئًا رائعًا ؟

كانت تلك الكلمات كافية لأن تشحذ همة الفتى وتجعله يمسك بعصاتي الطبل، ثم يبدأ بالقرع مُعلنًا عن طلب انضمامه وقلبه يكاد يطير فرحًا بهذا السؤال: أيمكن لأمي أن تراني فعلًا وأنا أقاتل ؟

٢

على وقع أصوات القرع غادر السادة (دار الندوة) لينظروا إلى المتقدم، ولكنهم ما إن رأوه حتى أشاحوا بوجوههم عنه؛ في علامة واضحة على رفضهم قبوله ..[٧]

لم يستسلم في البداية وواصل القرع دون توقف،

ولكن وقتًا طويلًا مضى دون فائدة؛ الأمر الذي جعل الحزن يتسلل إلى قلبه؛ فأغلق عينيه لفرط الخيبة بينما بدأت عزيمته ترتخي شيئًا فشيئًا كما لو أن يأس أعماقه قد انعكس على يديه حتى توقفتا أخيرًا عن القرع، ثم التفت نحو العامرية وهو يهمس لها معاتبًا لائمًا وفي عينيه تحتشد دموع اليُتم:

- قلتُ لكِ دعينا نرجع.

---

٧ (دار الندوة) هي مقر لتنظيم وإدارة شؤون مكة، يجتمع فيه السادة والشيوخ لتبادل الرأي والمشورة.

كانت المفاجأة هي رؤيته للعامرية تبتسم، لم يفهم في البداية سر تلك الابتسامة حتى أشارت له بإصبعها المخضب بالحناء حيث كان يقف السادة وقالت:

- انظر هناك.

استحالت ملامح الخيبة فيه إلى ابتسامة عذبة وهو يرى أحد السادة وقد رفع يده معلنًا الموافقة على طلبه في اللحظة الأخيرة؛ فمسح دموعه وكاد أن يعانق العامرية ولكنها منعته - منعته لحرصها على غلق أي ثقب قد تتسلل منه المشاعر بينهما - غير أنه اندفع نحوها على الرغم منها وهو يعانقها ويقول:

- هذه المرة .. هذه المرة فقط !

في الحقيقة، كانت أعماق العامرية سعيدة بذلك العناق رغم وجهها الذي أظهر عكس ذلك .. تُرى ما الذي تخبئه تلك المرأة وراءها من أسرار ؟ كان هذا هو التساؤل الذي تطرحه بُثينة على نفسها وهي تراقب المشهد من بعيد.

**

(دار الندوة)

داخل دار الندوة بدت الوجوه - وجوه السادة - غير راضية وهي تنظر نحو الحارث بن الأجهر الذي كان قد رفع يده قبل قليل ووافق على مشاركة آزر في مسابقة صِنديد العرب.

قال صاحبه وأقرب السادة إليه، السيد (عبد هُبل) يعاتبه:

- صبيٌ من العوام لا نسب له ولا أصل، تقبل به في مسابقة يُشارك فيها أبناء الأمراء والشيوخ ؟!

أجاب الحارث بكلمات حيرت عقولهم:

- واللات والعُزّى ما صنعت ذلك إلا من أجلكم.

تلفت السادة حول بعضهم البعض وهم لا يفهمون مقصده؛ فأكمل:

- لقد ضقنا بهذا الصبي ذرعًا بيننا يا قوم، والشيء الوحيد الذي يمنعنا من إراقة دمه هو كفالة سيدنا نُمير بن رَبيعة له قبل وفاته .. وإن اشتراكه في هذا الصراع لهو ما سوف يمنح الفرصة لأحد أبنائنا بقتله دون أن يلومنا أحد على ذلك.

تبدلت الوجوه غير الوجوه وقد انعكس عليها الرضى، ولكن هاجسًا مخيفًا خطر ببال أحدهم تلك اللحظة؛ فقال يشاركه مع الجميع:

- ألا تخشى أن تمنحه العامرية قوة شيطانية تجعله يتغلب على أبنائنا في النِزالات وينال اللقب ؟!

قال الحارث طاردًا ذلك الهاجس من رؤوسهم:

- لا تنسوا أن كَهنة مكة والطائف ويَثرب[٨] سوف يشهدون معنا جميع النزالات، فإن كان هنالك أثر للسحر أو الشعوذة فسوف يأتينا أمره.

---

٨ (يَثرب) هو الاسم القديم للمدينة المنورة.

ولما كان الشيء بالشيء يُذكر، قال أحد السادة ناطقًا بما يردده الناس هذه الأيام:

- أتكون العامرية هي والدة الصبي ؟!

وقال آخر معززًا تلك الفرضية:

- لو لم تكن والدته لما حنثت بقسمها وغادرت معتزلها .. إنها وحق ما آمنت به العرب أمه .. وقد جاءت مدفوعة بتأنيب الضمير تريد أن تكفر عن ذنبها بعد أن تخلت عنه وهو طفل رضيع.

في تلك اللحظة انبعث صوتٌ من أقصى الدار لسيدٍ مسن يقول:

- ليس المهم أن نحدد نسب الصبي يا قوم، المهم أن يضمن لنا الحارث ألّا تُحسن العامرية تدريبه فيفوز .. تالله لئن فاز لتكونن تلك وصمة العار وسُبة الدهر.

التفتت الرؤوس نحو الحارث الذي قال مؤكدًا ودون تردد:

- لن يَبلغَ البربري تلك المَنزلة وسوف يخسر من أول لقاء؛ فالعامرية وإن حيكت حولها القصص؛ فهي ليست سوى امرأة لا تجيد غير الطبخ وكنس الغبار.

ضحك السادة من تلك الطرفة إلا هو - الحارث - الذي لا يعرف حتى الآن أية قوة شيطانية ورطته وجعلته يوافق على قبول ذلك الفتى في المسابقة رغمًا عنه.

٣

آزر والعامرية

جبل مجر الكَبش[٩]

ليلة قمراء ذات نسيم عليل يحمل على متنه أريج وادي مكة المحمل برائحة السِدر والطين وبقايا مطر هطل ليلة البارحة، جلست العامرية مقابلة لآزر فوق الجبل وقالت:

– الألم جزء من النجاح الذي ينتظرك غدًا، جزء من الأسطورة التي سوف تصنعها بنفسك لنفسك، ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

وكأنما قد أُعجب بكلامها؛ فأراد أن يردده ليحفظه:

– ليس بوسع المرء أن ينال المجد دون أن يدفع نصيبه من الألم.

هنا بدأ هتان مطر خفيف يتساقط عليهم؛ في الوقت الذي ألقت فيه العامرية سؤالها هذا:

– أتعرف سبب تسمية هذا الجبل باسم مجر الكبش يا آزر ؟

---

٩ يسمى أيضًا جبل ثبير، ويُطلق أهل مكة عليه جبل مجر الكبش.

قال ورشات المطر تُبلل شعره ووجهه الأمرد الوسيم:

- لا أعرف.

قالت تخبره عن سبب التسمية:

- عاش النبي إبراهيم لسنوات طويلة دون أبناء .. ثم رزقه ربه بولد أسماه إسماعيل، وعندما كبر إسماعيل، جاء الوحي للنبي إبراهيم في منامه يأمره بذبح ابنه.

اتسعت عينا آزر في ذهول وهو يقول:

- وما صنع إبراهيم ؟

- لقد أخبر ابنه بشأن تلك الرؤيا.

- وما قال الابن ؟

- قال افعل ما تؤمر به يا أبتي، ولن أعصي لك أمرًا؛ فتناول إبراهيم السكين وسحبها على عنق ابنه.

ارتاع آزر وفمه ينطق بما خاف منه:

- وقتله ؟

- لا، فالسكين لا تقطع دون أمر ربها.

- ما الذي حدث إذًا ؟!

- لقد جاء النداء الإلهي من السماء؛ وحين تطلع النبي إبراهيم نحو الأعلى شاهد فحل كبش أقرن يهبط إليه فوق الجبل ليذبحه بدلًا عن ابنه؛ وقد دارت أحداث هذه القصة هنا فوق قمة هذا الجبل الذي نقف عليه؛ ولذلك يُطلق أهل الوادي عليه اسم جبل مجر الكبش.

أحس آزر بقشعريرة قوية تجتاح جسده وهو يتأمل الجبل من حوله ويستشعر أحداث القصة التي جرت فوقه:

- أتعلم كيف اجتاز النبي إبراهيم ذلك الاختبار الصعب يا آزر ؟

- كيف ؟!

لقد اجتازه بالثقة - وأضافت تشرح له: الثقة في اتّباع ما يُوحى إليه، وعليك أنت أيضًا أن تثق في اتباع ما يُوحى إليك.

- ولكنني لستُ نبيًا ليوحى إليَّ.

- صوتك الداخلي هو وحيك الخاص؛ الذي يخبرك بأنك مميز، وذكي، وشجاع، وقادر على تحقيق أهدافك مهما كرهك الناس وكادوا لك وحاولت الحياة منعك .. وهذا هو درسك الثاني، مفهوم ؟!

- مفهم ..

لم تعطه فرصة إتمام كلمته حتى باغتته بلطمة قوية على رأسه جعلته يصيح من ألمها، ويقول وهو يتحسس مكان الضربة:

- لو لم تكوني امرأة لكنت وجهتُ لك مثلها، لماذا فعلتِ ذلك ؟!

- لأن درسك الثالث قد بدأ: وهو أن الضربة قد تأتيك دومًا في الوقت الذي لا تتوقعه؛ لذا عليك أن تُبقي حواسك دائمًا يقظة حتى تتفادى الضربات الغادرة.

- ألم يكن بوسعك أن تُخففي الضربة قليلًا ؟!

- لا؛ فكلما كان الألم أكبر كلما كان نصيبك من العلم أكثر.

وبينما آزر ما يزال يتحسس موضع الضربة إذ وجّهت إليه العامرية ضربة أخرى أشد قوة من المرة السابقة جعلته يسقط أرضًا لفرط شدتها، وحين نظر إليها وهو يحاول كبت دموعه رآها وهي تنظر إليه ببراءة وكأنها لم تصنع شيئًا وثمة ابتسامة مستفزة على وجهها؛ فوجد نفسه يقول:

- أتعلمين ؟! .. كنت أخاف أن أُقتل في نِزالات صِنديد العرب.

- والآن ؟

- لم أعد أخاف.

- لأنك أصبحت أكثر ثقة بنفسك، أليس كذلك ؟

- بل أكثر ثِقة في أنني سأموت على يديكِ قبل بدء النِزالات.

ضربته العامرية للمرة الثالثة على رأسه بقوة فاقت المرتين السابقتين، ورغم أنه بدا غاضبًا أمامها مستعدًا لإطلاق يديه للانتقام، إلا أنها قرّبت وجهها منه بكل برود وهي تقول في ثقة:

- لقد أخبرتني قبل قليل أنني لو لم أكن امرأة لكنتَ ستضربني، وبذلك تكون قد كشفت لي نقطة ضعف استطعت أن أضربك من خلالها؛ درسك الرابع هو ألّا تخبر أحدًا عن نِقاط ضعفك.

- أرجو أن تُخففي الضرب قليلًا؛ كيلا أُشل على يديكِ.

مدت العامرية يدها نحوه؛ فأساء آزر التقدير وأعتقد أنها ستضربه مجددًا فأغمض عينيه وحمى رأسه بذراعيه .. كان منظره مضحكًا ولكنها كبتت ضحكتها وقالت:

- لن أضربك، هات يدك فقد تأخر الوقت؛ وغدًا ينتظرنا يوم حافل.

- أأثق بك، أم أنه ينتظرني درس خامس ؟

لقد ضحك قلبها بلا شك، ولكنها كانت تُحسن إبقاء وجهها جامد الملامح:

- هات يدك يا ولد.

أمسك يدها واستند عليها ليقف، قالت وهي تنظر إلى عينيه:

- لا أريدك أن تنسى العهد الذي قطعته لي.

- لو أنك فقط تخبرينني به.

- سأخبرك عندما يحين وقته، ولكنني أريد أن أتأكد بأنك لن تُخلف تنفيذه مهما كان صعبًا.

- آزر لا يحنثُ بعهدٍ قطعه لأحد، وهذا هو درسك السادس.

أشاحت بوجهها عنه؛ ذلك أنها لم تكن تريده أن يرى ابتسامة الإعجاب التي ارتسمت على ثغرها؛ فهي لا تريد أن تجمعها بذلك الصبي الصغير أي شيء - ولو كان تافهًا - من شأنه أن يُدخل العاطفة بينهما .. وبينما كانت مُشيحة بوجهها إذ لمحت قطًا أسود يتلصص عليهما من بعيد؛ فقالت تأمر آزر:

- اذهب إلى المنزل، وسألحق بك لاحقًا.

ما إن ابتعد آزر من هناك حتى راح القط الأسود يدنو من العامرية مقتربًا، وقد كان في كل خطوة يخطوها نحوها ينتصب فيها ظهره وتتمدد فيها أطرافه حتى استحال إلى نفرٍ من الجن يقف أمامها على بعد متر، متجسدًا بهيئة شاب يرتدي ثيابًا عربية:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- أما تزال تراني جميلة رغم هذه التجاعيد التي وخطها الزمان على وجهي، ورماد الشيب هذا الذي زحف إلى روحي وليل شعري ؟!

- عين العاشق ترى الجمال في كل شيء أيتها العامرية.

ابتسمت في خجل؛ فعاد يسألها:

- أما زال جميل المُحيا غاضبًا ؟!

- عشرون عامًا وأنت تسألني كل يوم، أما مللت هذا السؤال ؟

- وسأظل أسألك حتى يمل صبرك وتسمحين لي بالاقتراب.

ابتسمت العامرية له وكأنها تتعجب من إصراره، وقالت:

- أما والله قد ملَّ صبري؛ فاقترب يا يَغوث، وعليك مني الأمان.

٤

وبالرغم من أن العامرية عادت في وقت متأخر تلك الليلة إلا أنها أفاقت صباحًا قبل آزر؛ وبدأت مهام تدريبه .. كان آزر ذلك النهار يبارز لأول مرة في حياته، ولكن خطواته الخفيفة أثناء الحركة، ومرونة جسده، وقوته وهو يقاتل بالدرع والسيف، واستجابته للتعليمات وفهمه لها دون الحاجة لشرح طويل، كل ذلك كانت علامات تشي بأنه محارب بالفطرة.

كان الدرع الذي يحمله مصنوعًا من الخشب الخفيف، صنعته له العامرية خصيصًا، وقد جعلت حوافه من الحديد ذي الشفرات القاطعة؛ لتضمن أن تحقق له هذه الأهداف: درع يُدافع به عن نفسه، ولا يُثقل حركته أثناء القتال، وفي ذات الوقت توفر له الحواف الحديدية ذات الشفرات القاطعة أداة هجومية فتاكة، فيستطيع بذلك الأسلوب القتالي النادر أن يدافع عن نفسه بالدرع ثم يهاجم خصمه بالدرع والسيف في آن واحد.

لم تكتفِ العامرية بتطوير قوته البدنية فقط بل كانت تضع اهتمامًا كبيرًا بعقله؛ وهذا ما جعلها تدفعه كل ليلة لقراءة صفحاتٍ من كتاب الحَبر، وحين سألها ذات مرة عن السبب الذي يجعلها تحثه على ذلك بعد أن عجز عن إيجاد الفائدة التي قد تعود إليه كمحارب من قراءة القصص، قالت تجيبه عن تساؤله:

- الجهلاء وحدهم من يعتقدون أن القصص وُجدت للتسلية فقط.

- وما الذي قد أستفيده من قراءة القصص ؟

- أمورٌ كثيرة، أحدها وهو ما أسعى إليه أنها ستقوي خيالك.

- الخيال ؟! .. وما الذي قد يُفيدني به الخيال في هذه المرحلة ؟!

- الخيال يأتي أولًا؛ كل ما يوسع عَقلك تخيله يستطيع قلبك تحقيقه.

ثم صمتت قليلًا كما لتترك لتلك الجملة فرصة التسلل إلى عقله فترسخ فيه، قبل أن تكمل قائلة:

- خيالك هو خيلُك، غذاؤه القراءة، تمتطيه فيُحلق بك نحو مجدك.

**

وهكذا سارت الأيام المقبلة: في الليل تعمل على تطوير مخيلته بواسطة القراءة، مؤمنة أنها لن تستطيع أن تصنع منه مقاتلًا أسطوريًا دون أن تُغذي مخيلته بالقصص .. وفي الصباح تعزز جسده بالقوة عن طريق تمارين المقاومة وتدريبه على المبارزة بالسيف والدرع.

وذات أحد الصباحات، وبينما الذئبة والغراب يراقبان مبارزتها له في ساحة التدريب خلف الدار، كانت هنالك نظرات دخيلة لشخصين غامضين يتلصصان من بعيد على مشهد التدريب دون أن ينتبه لهما أحد.

**

(المتلصصان)

بعد غروب الشمس وعلى أضواء المشاعل:

وقف الحارث بن الأجهر في الفناء الخارجية الواسعة لداره يتأمل ابنه كعب وهو منهمك في الصراع مع مدربه، في الوقت الذي اقترب فيه أحدٌ من خلفه وقال يسأله:

- ما الذي يشغل بال سيد الوادي يا تُرى ؟!

قال وهو ما يزال يُحدق نحو ساحة التدريب:

- ما رأيك بالمستوى الذي رأيناه صباح اليوم من ذلك الفتى ؟!

- أتقصد آزر ؟

- ومن غيره يا عبد هُبل، ومن غيره ؟!

كانت تجمعهما صداقة قديمة؛ تجعل عبد هُبل يعرف صاحبه جيدًا وهذا ما جعله غير مرتاح لذلك الإلحاح المستنكر الذي يراه منه بخصوص هذا الفتى تحديدًا:

- إني لأعجب من اهتمامك بهذا الفتى دون غيره أيها الحارث؛ فلقد تلصصنا على الكثير من التدريبات، ولم أرك تكترث إلا بشأن هذا الفتى البربري ابن الذئبة.

التفت الحارث نحوه وقال منفعلًا يجيبه عن تساؤله:

- ها أنت ذا تقولها بنفسك يا عبد هُبل " البربري ابن الذئبة " ماذا سيحدث لو أنه فاز ؟! .. وتلك مسابقة فيها من فيها من أبناء السادة وشيوخ القبائل وأمرائها .. ماذا سيقول الناس عنا ؟! .. بربري غير ذي نسب يفوز على ابناء الأصل ويُعلق اسمه على أستار الكعبة ! !

- تتحدث وكأنك لستَ أنت الذي وافق على انضمامه ؟!

يصيح معترفًا هائجًا لفرط غضبه وسخطه:

- واللات لا أدري كيف رفعتُ يدي .. أتكون تلك الشمطاء قد مارست عليَّ إحدى تعاويذها فتحركت يدي رغمًا عني ونطق لساني بالموافقة ؟

عبد هُبل متعجبًا من سماعه لذلك السر:

- ولكنك قلتُ في دار الندوة كلامًا يوحي بأنك وافقت بمحض إرادتك؛ فلماذا لم تخبر السادة بمقالتك هذه ليطردوه من المسابقة ؟

- أتريد الناس أن يقولوا إنني تراجعت عن كلمة قلتها ؟! .. وحق اللات والعزى لو أن كل شياطين الإنس والجن قد تلبستني على قولٍ كلمة خرجت من بين شفتي لأنفذتها ولو كان فيها ضرب عنقي.

امتدت بينهما لحظات من الصمت قطعها الحارث بأن أعاد عليه سؤاله الأول:

- أصدقني الرأي.

- في ماذا ؟

- في أن أذبحك وأفرق لحمك بين الطائفين.

قال وقد ندت عنه ابتسامة بلهاء:

- كلي فداء سيدنا.

- ما أحوجني الساعة لمثل قلبك الغبي البارد.

- هدئ من نفسك يا حارث، لا شيء يستحق.

- أصدقني الرأي، وأخبرني عن رأيك به ؟

كان عبد هُبل يدرك أن الفتى بارع في القِتال، لقد شاهده يُقاتل بطريقة فريدة لم يسبق أن شاهد مثلها من قبل، لقد رآه وهو يصد بدرعه ضربات سيف العامرية، ثم سرعان ما يبدأ بمهاجمتها مستخدمًا سيفه من جهة ودرعه الذي يستحيل من أداة للدفاع إلى أداة هجومية قوية بامتياز من جهة أخرى، إنه يقاتل بخفة وسرعة عالية وكأنما خُلق ليكون محاربًا، ورغم ذلك كان عليه – على عبد هُبل – ألا يُثير القلق في نفس صاحبه، فأجابه بتوازن:

– لا تنسَ أنك قد استقطبت لابنك كَعب مدربًا قد شهد حروبًا وفيرة من أيام حروب العرب .. فتجاهل أمر ذلك البربري يا حارث ودعنا نضع جُل تركيزنا في فعل كل ما يلزم لتطوير قدرات كَعب وتأهيله لنَيل اللقب.